رواية

أشهد أن لا أمراة الا أنت

"أسيا الروح"

حنان عبد الرحمن

AG
BOOKS AND PUBLISHING

اسم العمل: أشهد ألا امرأة الأ أنت

نوع العمل: رواية

اسم المؤلف: حنان عبد الرحمن

A G

للنشر و التوزيع

الطبعة: الأولى 2018

تصميم الغلاف:سامى رافت

تفضلوا بزيارة موقعنا

A G

للنشر و التوزيع

من خلال الضغط على

الرابط التالى:

https://www.facebook.com/agpublishing

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

a.gforpublishing@gmail.com

إهداء

و أنت ماشي في مصر شايف ألف ضحكة بتناديك
و أنت ماشي في مصر عارف إنها فرحانة بيك
قول لي فين الغربة و أنت وسط أهلك مش بعيد
ده الفرح لو زار ديارك يلقي جوه ديارنا عيد
يلقى ساعة الشدة إيد
مصر قريبة

لماذا دائما ما أتطلع إلى بعيد؟! .. لماذا يأخذني عقلي إلى حيث تسكن الملكات؟!..

تستهويني كثيرا شخصية كليوباترا.. كم تمنيت أن أخترق الزمان.. و أعود به إلى الوراء.. لأمتع عيني بالنظر إليها.. و أسألها:

– كيف فتن هواك أنطونيو؟! .. كيف خضع لك؟! .. مالذي فعله به هواك؟!..

إنني حالمة في دنيا اللأحلام .. أبحث عن لحظات جنون في عالم يخلو من اللامعقول.. و لا يؤمن بالأوهام.. و لا ينظر بعين الاعتبار إلى الهفوات..

كل ما يجيده هو أن يعتبرني آثمة إذا ما تجرأت.. و نطقت بعبارات الغرام .. فلماذا أيها العالم من حولي تنظر إلى عقلي بكثير من الإجرام؟!..

سأعلنها عليك.. و على كل من يتجرأ علي.. أو ينعتني بما لا أحب.. سأقول و أعرف ما سأجنيه من قولي:

– لن أبالي بك ثانية.. أو ألتفت لهؤلاء التعساء الذين يسكنون عليك.. سأحيا لنفسي فقط.. لأنها وحدها من تستحق الحياة..

أحبك أيها الليل كثيرا لأنك تمنحني روائع الأشياء.. أحبك لأن فيك غموض محنك يدعوني إليه.. لأبحث عن ذاك الفارس المنتظر.. يسكن سويداء الفؤاد..

إنه من البشر.. و إن كان يسمو قليلا بأناقته.. بعجرفته.. بطلته التي تشبه طلة الفرسان..

لقد نسجته من خيالي.. و أبدعت فيه حد اللامعقول.. و مازلت أتساءل:

– أهو موجود على أرضي أم يحتم علي أن أرحل إليه كل ليلة إلى عالم الخيال لألقاه؟!..

وحيدة في هذه الدنيا.. ليس لي أنيس غيره.. اشتقت إليه.. أريد أن أتحدث معه.. أن أعرف أخباره.. فمتى تدلني الحياة عليه؟!..

و إن كنت أخشى أن أجده فلا أصدق و أنهار.. بالله عليك أن تأتني على مهل حتى لا أفزع من أمرك.. أو يعتصرني الخوف من أن أفقدك..

لكم اشتقت إليك.. يكاد الفراغ أن يلقي بي في هوة سحيقة.. أخاف أن أسقط فيها سقوطا يحطم جوارحي.. و أنا لا أملك غير هذه الجوارح.. إنها بمثابة إحساس يرشدني إذا ما خذلتني الحياة..

أتدري أني أصدق إحساسي.. و لكني للأسف عندما لا أنصت إليه و لا أصغي له أندم كثيرا.. و يا ليت الندم يفيدني.. يمزقني و يلقي في قلبي حسرة ليس بعدها حسرة..

من أجل ذلك أخاف ألا أهتدي إليك في دنياي.. أو نلتقي و لا يهتدي أحدنا للآخر.. و نمر من أمام بعضنا مرور الكرام.. تمر في حياتي كعابر سبيل.. كوهم لذيذ تمنع علي.. أو سراب أصيل رحل و ترك خياله يداعب ظنوني به.. و أكثر ما أخشاه أن تفرقنا الحياة رغم هذا الحب الكبير في قلبينا..

إن مجرد فكرة وجودك في حياتي تخيفني.. و لا أدري من أين آتي بكل هذا الخوف عليك و ليس لك وجود حقيقي؟! و لكن دائما ما أخاف كلما فكرت فيك.. فهل تخاف وجودي في حياتك كما أخاف وجودك؟!

سأظل حائرة تائهة خائفة إلى أن أجدك حقيقة.. و أطرح عليك تساؤلاتي.. فربما تزيل الخوف من نفسي.. و تزيح عن صدري هذه الغمة السوداء التي تعتصرني.. إننا لم نكد نلتقي حتى أخاف عليك كل هذا الخوف.. و لكنك كما تعلم و كما حكيت لك امرأة مرهفة الحس.. تحمل بداخلها هما تحتاج أن تلقيه عليك.. تحتاج إلى أن تشاركها همها.. تنتظر منك بشدة أن تربت على كتفها.. و تخبرها: أنك هنا بجوارها: فلا تخافي و لا تحزني..

لا تكن قاسيا أيها الحبيب في هجرك.. و لا تجعلني أطيل الأمد فيك.. و ترهقني الأماني البالية.. لقد هجرت الأرض و المكان لألقاك هنا.. في هذا الحيز من وجودنا سويا.. بعيدا عن هذه الظروف القاسية التي قد تحول دون لقائنا..

أنا آسيا.. أعيش مع جدي و جدتي لوالدي.. مات والداي و أنا في سن الصبا.. و تذوقت طعم اليتم.. رباني جدي و جدتي.. كانا يحنوان علي.. و كأنني رضيعتهما التي جاءت بعد غياب.. يدللاني حد الاهمال.. و يظنان بأنهما هكذا يمنحاني حريتي.. و لا أملك أمام طيبتهما إلا أن أحبهما أكثر..

في فترة صباي كنت منطوية على حالي.. أجد نفسي في وحدتي.. و كنت أقرأ كثيرا.. أحببت القراءة إلى درجة غير عادية.. و أكثر ما أحببت قراءته الروايات.. رواية رد قلبي .. في بيتنا رجل .. أنا حرة .. بين الأطلال.. و تمنيت أن أعيش هذه الفترة التي استأثرت بكل ما هو جميل و فريد.. كنت أشعر أني أنتمي إليها بشكل أو بآخر.. كنت أحس أن روحي تسكن هذا الزمن..

كما أحببت الراديو.. كنت أستمع فيه إلى أغاني زمان.. أجلس في شرفتي.. أشرب الشاي الأحمر الثقيل في فترة المساء.. أقرأ في رواية.. و أعيش معها بوجداني.. و أرغب ألا أبرحها أبدا.. أعيش دور البطولة في خيالي.. فيشبع حاجة في نفسي..

و كانت أمي تعتني بي عناية خاصة.. ربما لأني ابنتها الوحيدة.. كنت أرى في عينيها حبا رقيقا تكنه لي.. كانت تنظر لي و أنا أقرأ بابتسامة رقيقة.. فيها كل المعاني الجميلة.. كانت هوايتها الوحيدة أن تتأملني و أنا أقرأ.. هوايتها القريبة إلى نفسها أن تشاهدني في كل تصرفاتي.. و تبدي إعجابها بي.. عندما أضحك.. عندما أمشط شعري.. كانت تقول لي:

– أنت مميزة يا آسيا.. مميزة في كل شيء.. ما شاء الله..

أضحك لها و أقول:

– بل أنت الجميلة يا ثريا..

تضحك و تقول لي:

– لا بل أنت الجميلة يا آسيا..

فيدخل أبي علينا و يداعبنا بجديته:

لا عليكما.. أنتما الاثنتان جميلتان..

فنضحك أنا و ثريا..

و كنت أحيانا أناديها باسمها ثريا.. لأني كنت أحب اسم ثريا..

سألتها في مرة و قلت لها و كنا نجلس ثلاثتنا نتناول الشاي:

– من سماني آسيا؟!..

نظرا لبعضهما ثم أجابت ثريا قائلة:

– أنا التي سميتك آسيا..

سألتها ثانية:

– و لماذا آسيا؟!..

تنهدت و قالت لي:

– لأنه على اسم ملكة..

– سألتها بدلال:

– و هل تريدين أن أكون ملكة؟!..

ردت علي في الدلال نفسه:

– أنت مليكتي..

وجهت سؤالي إلى والدي:

– لو لم يكن اسمي آسيا ماذا كنت تحب أن تناديني؟!..

قال لي في استغراب:

– ما هذا السؤال العجيب؟!..

– مجرد فضول..

– أحب اسم آسيا فهو يليق بك..

– بالله عليك قل لي..

فكر قليلا ثم قال لي:

– ثريا..

ضحكنا نحن الثلاثة.. و غمزت لثريا بعيني.. و أبي يبتسم في جديته.. و كأنه لم يلاحظ شيئا..

***

كانت أيامنا رغم بساطتها إلا أنها دافئة ودودة.. يمر اليوم بهدوء.. يتخلله أوقات من المرح و الجدية.. كأي أسرة مصرية بسيطة.. اعتادت حياة نمطية تقليدية.. تجد فيها كل الرضا.. إلا أني كنت شاردة بعض الشيء.. و هو ما كان يقلق ثريا معه.. فكانت ترى في نفسي حيرة ما.. و كأن روحي معلقة بعالم آخر.. و عندما كانت تتحدث إلى أبي في الأمر.. كان دائما يطمئنها بأنه أمر طبيعي لبنت في مثل عمري.. كان يلاحظ تغيرها.. و يستشعر أنه أمر يتعلق بي.. فيحاورها:

– أبك شيء؟! .. أراك قلقة من شيء..

– لا أدري.. ربما .. آسيا..

– ما بها؟!.. فتاة مثالية.. هادئة مطيعة ودودة..

– تشرد مني كثيرا.. و كأنها مشغولة بشيء..

– أنت تبالغين.. لأنك حساسة للغاية.. لو بها شيء يقلق لاستشعرت الأمر..

– قلبي يحدثني..

– هل تحدثت إليها؟!..

– كلما سألتها قالت لي: لا شيء..

– أرأيت؟! .. لا شيء..

– أنت تعرف أنها كتومة و انطوائية.. و لا تصرح بما بداخلها بسهولة..

– هى فتاة رقيقة.. لا تحب أن تزعج أحدا معها دون داع يذكر.. لا تنسي أنها في فترة مراهقة.. قد يبدو مزاجها متقلب بعض الشيء..

– منذ أن رأيتها في حلمي و أنا أنزعج من أجلها..

– و ماذا رأيت؟! .. لم تخبريني..

– رأيت آسيا و قد نضجت.. و أصبحت فتاة مكتملة الأنوثة..

– و بعد..

– ما أزعجني معه.. أن ظهرها كان منحنيا.. و تمشي مثقلة بشيء لا أراه..

– ثم؟!..

– سقطت على ركبتيها.. و ظلت تجهش ببكاء مرير.. دموعها كانت غزيرة.. تجري كنهر تدفق..

– هل ظلت على حالتها؟!..

– لا .. جاء شخص ما.. يشبهك أو يشبه مالك.. لا أدري بالضبط..

– و ماذا حدث؟!..

– مسح على شعرها.. فنظرت إليه و ابتسمت.. مد لها يده.. وضعت يدها في يده ثم قامت.. أمسك وجهها بيديه ثم قبل جبينها.. و بعدها مسح دموعها بأنامله..

– الحمدلله.. أمر يبشر..

– يبدو لي أنها ستمر بمحنة ما..

– و لكن هناك من سينتشلها.. ألا يطمئنك ذلك؟!..

– هناك شيء يخيفني..

– علينا أن نرضى بأقدارنا .. بحلوها و مرها .. هذه هى سنة الحياة..

– ليتني أوقف هذا الهاجس الذي يؤرقني..

– آسيا تشبهك في كل شيء يا ثريا.. أخذت منك الكثير.. و أنت قوية و هى قوية مثلك..

– أعلم.. و لكن..

– رجاء .. لا تتوقعي البلاء قبل حدوثه.. فلنعش في سلام.. حياتنا بين أيدينا.. و أنا هنا بجانبك.. بالله عليك..

– سأحاول ألا أقلق.. أعدك..

– و أنا أثق في وعدك.. و لا تزعجي آسيا معك.. إنها فتاة حالمة.. اتركيها لأفكارها و رؤاها .. تنضج شيئا فشيئا..

– أتمنى من الله أن يحفظها من كل سوء..

– و هذا كل ما تحتاجه آسيا في الوقت الحالي.. دعاء صادق..

***

كنت معتادة بين الحين و الآخر أن أجلس إلى أبي في مكتبه.. أتحدث إليه.. ففيه من الوقار و الثقة ما يجذبني إلى أن أتحاور معه.. كان رجلا وسيما جذابا.. له شخصية أنيقة.. في عينيه عمق.. يخبرك عن ذكاء فطري.. و لكنه ذكاء طيب.. ملامحه مصرية أصيلة.. كان مثلي يحب الشاي الأحمر الثقيل.. كنت أعده له بنفسي في بعض الأوقات.. متحججة به لأجلس إليه.. كان أكثر ما يحدثني فيه هو حبه لثريا.. و كيف أنها امرأة من نوع فريد.. و أن الله أكرمه بها.. فكنت أقول له:

– من الطبيعي أن تقول هذا.. فهى زوجتك..

– لا يا آسيا .. والدتك امرأة فريدة من نوعها.. المرأة التي يبحث عنها كل رجل..

– كيف؟!..

– امرأة جميلة بشكل خاص..

– كل امرأة جميلة بشكل أو بآخر..

– يهيئ لك.. كما أني لا أتحدث عن جمال الشكل فحسب..

– و ماذا أيضا؟!..

– لديها من الطباع ما يجعلها تؤثرني..

– لا أفهم..

– أناقة أسلوبها معي.. اهتمامها الخاص بي.. تحملها لحماقاتي..

– و هل لك حماقات؟! .. أنت في نظري رجل مثالي..

– طبيعة عملي كانت في وقت ما تجبرني على تركها وحيدة أياما و ليالي.. كنت دائما ما أقلق عليكما.. و لكنها صبرت علي كثيرا..

– و هل هذه حماقة؟! .. ليت كل حماقات الرجال مثل حماقاتك.. أبوح لك بسر..

– تفضلي..

– كم أتمنى أن أتزوج رجلا مثلك!..

– تستحقين من هو أفضل مني..

– لا تخبر ثريا حتى لا تغار عليك..

– سرك في بئر لا قرار له..

نضحك بصوت عال.. ثم أشير له بعلامة لخفض صوت الضحك.. فلا تسمعنا ثريا.. و إذا بها تدخل علينا و تسألنا:

- لماذا تضحكان؟!..

فنزداد ضحكا.. و يعلو صوت ضحكنا.. و ثريا تصر على أن تعرف ما الذي يضحكنا:

- لن أتركما حتى أعرف..

يخبرني أبي شيئا.. أحب أن أعرفه منه.. أراد أن يخبرني به أمام ثريا.. قال لي:

- تعرفين يا آسيا.. أحلى ما فيك أنك تشبهين ثريا..

- أتحب ثريا إلى هذه الدرجة؟!..

- و أكثر مما تتخيلين..

- ما كل هذا الحب؟!..

- آسيا هناك شيء يجب أن تفهميه جيدا.. شيء يتعلق بثريا..

- نعم.. ماهو؟!..

- أولوياتي في الحياة ثلاثة: مصر و ثريا و آسيا..

- مصر!.. ما علاقتها بالموضوع؟!..

- مصر تعني أنت يا آسيا.. مصر تعني ثريا.. مصر هى أنا.. مصر هى أبي و أمي.. مصر هى مالك.. كلنا مصر.. و مصر هى نحن.. أرض و شعب و تاريخ.. نكمل بعضنا لنصنع وطنا.. لا يصح أن نتجزأ أبدا.. أفهمت يا آسيا؟!..

- أفهمك..

كم أحببت هذا الرجل المتفاني من أجل إسعاد أسرته الصغيرة بأسلوبه البسيط الذي يدخل إلى القلب دون مقدمات أو تعقيدات..

***

اعتدنا في مساء كل خميس أن نخرج سويا.. نتمشى على شاطئ النيل.. نجلس على مقهى نفرتاري.. كنا نتحدث قليلا.. أبي يقرأ في كتاب سياسي.. و ثريا تسرح بعيدا.. تركز نظرها في مياه النيل.. و كأنها تبحث عن شيء.. أحسها تحدث النيل.. و تخبره عن شيء.. تتأمل غروب الشمس.. يرتسم على وجهها شيء من الكآبة.. و أنا أقرأ في إحدى رواياتي.. و كان يأتينا صوت الراديو بأغاني زمان.. لا يأخذني من قراءتي سوى أغنية على فين وخداني عينيك.. فأجد كثيرا من الرومانسية تتجلى على وجهي.. و فرحة رقيقة تداعب قلبي.. فتلاحظ أمي ذلك.. فتنتبه لي أكثر.. و تنظر لصلاح.. و تشير إليه بعينيها.. فينظر إلي نظرة إعجاب.. أشعر معها بالخجل.. أشعر بأن شابا جميلا من الزمن القديم يداعبني..

قام أبي من مقعده.. و مد لي يده.. نظرت إليه باستغراب.. أستوضحه الأمر.. و يبدو أن ثريا أدركت مراده.. فضحكت بصوت مسموع.. همس لي:

- هيا...

وضعت يدي في يده.. فشدني من على مقعدي.. و أنا في قمة خجلي.. و إذا بصلاح يراقصني على أنغام الأغنية.. كانت الأضواء خافتة في المكان.. و لا يوجد إلا عدد محدود من الناس.. كان على الطاولة المقابلة رجل و امرأة.. دائما ما كنا نراهما في ذاك الركن نفسه.. أسلوبهما في الحديث.. و ملامح وجهيهما.. يخبران عن عاشقين حالمين..

و شابان وسيمان يشربان القهوة و يدخنان.. يجلسان على مقربة منا.. و في ركن بعيد كان يجلس شاب وسيم للغاية.. كان يتأملنا باهتمام.. و يركز نظره في نظري بتعمد.. كنت أخجل منه.. و أبعد عيني

عنه.. و أنسى نفسي مع صلاح.. فقد أخذني من الدنيا و ما فيها.. انتهت الأغنية.. و إذا بمالك يقف تجاهنا يحيينا.. فنضحك.. و نجلس مكاننا.. و ينضم مالك إلينا..

***

دائما الدنيا لا ترضى.. و لا شيئا يرضيها.. كأنها تغتاظ من سعادة البشر.. فتقلب لهم حالهم هكذا في غمضة عين.. في مساء كئيب خرج صلاح و ثريا يأخذان جولة بالعربة.. فكان صلاح يفعل ذلك كلما رأي في ثريا كآبة.. كانت ثريا تجد نفسها في هذه الجولة.. كان الجو شتويا باردا.. فأمطرت السماء بغزارة.. خرجت إلى شرفتي.. أشعر برجفة في جسدي من صوت الرعد و البرق.. نظرت إلى السماء لأرى أضواءها الفضية التي أصابتني بفزع.. انقبض صدري لشيء ما.. و أصابني القلق على ثريا و صلاح.. و دعوت في نفسي:

- يارب..

حجبت الأمطار الغزيرة الرؤية عن أبي.. فاصطدم بشجرة ضخمة موجودة في آخر الحي الذي نسكن فيه.. سمعت صوتا عاليا.. لا أدري من أين آتى؟! .. و تذكرت الشجرة.. فخرجت من البيت مسرعة ناحيتها.. و عندما اقتربت منها.. وجدت سيارة أبي.. اقتربت منها لأجد ثريا و صلاح يلقيان برأسيهما.. و كأنهما في غفوة خفيفة.. حضر بعض أهالي الحي إلى المكان.. و كان من بينهم عمي مالك.. فارتميت في حضنه أجهش ببكاء.. و صرخة خرجت من أعماقي.. جعلتني أنهار بين يديه.. و هو حائر فزع.. لا يملك من أمره شيئا أمام هذا المشهد الصادم له...

***

انتهت الحياة الراقية التي كنت أحياها.. و انتقلت إلى شقة جدي و جدتي.. يعتصرني الألم.. و ينسيني الحزن أي شيء آخر.. حتى زهدت في الحياة فترة طويلة.. ازددت انطواء فيها على نفسي.. و وضعت همي في قراءة الكتب.. و شعرت بحالة من التوهان تسيطر علي.. كلما تذكرت شيئا.. أشعر بضيق

نفسي.. يكاد يخنقني.. يخرج روحي من جسدي.. أخرج إلى الشرفة.. أستنشق الهواء.. لأخفف هذا الضيق الذي يسيطر علي.. قررت أن أتناسي حتى لا تمزقني الذكريات.. و لكي أتناسي أحطت نفسي بكثير من الجمود.. و انطفأت روحي داخلي.. كنت مجرد جسد خاو.. متبلد الشعور و الإحساس.. جامد عبوس.. و إن كان هذا ظاهريا فقط.. أما عن داخلي فكان فيضا مختلفا من المشاعر و الأحاسيس الجياشة.. فقط تحتاج طاقة نور تنفذ منها..

***

حزن جدي و جدتي لحالي.. و لكنهما لم يملكا إلا الصمت لقلة الحيلة.. و لعنادي معهما.. و سايرت الحياة بقدر.. كنت دائمة الصمت.. و لكني أتكلم قليلا.. كنت دائمة الجمود.. و لكني أتحرك لأغنية.. لقصيدة أقرأها.. كنت كئيبة.. لكن أحيانا أضحك لجدي و جدتي.. كنت أجلس كثيرا في البيت.. و لكن أحيانا يأخذني الحنين لأخرج إلى شاطئ النيل.. أذهب إلى المدرسة.. و أعود منها لوحدي.. أنظر في الأرض حتى لا تلتقي عيناي بإحدى الفتيات.. فأضطر أن أبتسم لها ثم أتعرف عليها.. و في مرة سمعت شابا من شباب الحي يلقي لي بتسائله:

– هل تبحثين عن شيء؟!..

استفذني سؤاله بشكل لم أفهمه.. و لأتجنب مثل هذه السخافات.. اضطررت فترة لأن أغير طريقي إلى المدرسة.. و أمشي من طريق آخر.. كان أبعد لكنه أكثر هدوءا.. كفيت نفسي هذه الأمور.. و هو ما فعلته أيضا عندما دخلت الجامعة.. كان هناك لي ركن هادئ بين الأشجار.. أجلس إليه بمفردي بين المحاضرات.. و قد دخلت كلية الآداب قسم اللغة العربية.. لأدرس اللغة العربية و آدابها.. و إن كانت رغبة ثريا أن أدرس مثلها التاريخ.. اعتذرت لها بيني و بين نفسي و قلت لها:

– سامحيني يا ثريا .. فأنت تعلمين مدى حبي للأدب العربي..

***

و كان من ضمن اهتماماتي التي أجد فيها نفسي.. خروجي في بعض الأحيان إلى محلات الأزياء و العطور.. و غيرها من المحلات التجارية.. أقضي وقتا بينها.. أنتقي لي منها ما يروقني.. فكان جدي و جدتي سخيان في الانفاق علي.. يمنحاني كثيرا من المال.. و كنت أهوى أن أشتري أشياء كثيرة.. و أفرح بشرائها أكثر.. كان شراء الأشياء يجعلني سعيدة.. و يغير مزاجي إلى الأفضل.. ثم بعد فترة أفقد إحساسي بكل ما اشتريته رغم حبي له.. و أعود و أشتري ثانية.. أكثر الأشياء التي كنت أشتريها.. و أنفق عليها الكثير من المال هى الكتب و الحلويات.. و كثير من الدفاتر التي أكتب فيها عن أحزاني و اهتماماتي.. كنت أكتب حتى عن الأشياء التي أشتريها.. لماذا اشتريتها؟ .. أكتب عن مدى فرحتي بها.. و استغرابي من حالة السأم التي تصيبني.. و تفقدني اهتمامي بما اشتريته من أشياء أحب اقتنائها..

في مساء قررت أن أخرج.. كنت أريد أن أخرج فقط.. لم يكن في بالي أن أشتري شيئا.. فخرجت و قلت في نفسي:

– لو راقني شيئا اشتريته..

كنت أعاني غربة.. شيء ما يخنقني.. و بعيني حزن يتوهني.. أمشي و لا أعرف إلى أين؟! .. تجولت بين المحلات.. و كأني أبحث عن شيء لا أجده.. و ما كنت أريد شيئا معينا.. ظللت حائرة.. أمشي على غير هدى.. سرقني الوقت دون أن أنتبه.. لمحت مالك من بعيد.. بدا لي من لفتاته أنه يبحث عن شيء.. و لكنه لم يهتد إلي.. ذهب من طريق آخر غير الطريق الذي كنت أتجول فيه.. و ظللت أتبعه بنظراتي إلى أن غاب وسط الزحام.. عندها انتبهت إلى الوقت.. و قررت أن أعود إلى البيت.. و عدت و وجدت مالك ينتظرني.. و عندما رأني أدخل من باب الشقة.. نظر لي نظرة طويلة ثم خرج.. دخلت إلى غرفتي.. و رحت في نوم عميق..

***

عمي مالك.. رجل متعجرف.. تخرج من كلية الشرطة.. وسيم جذاب.. في عينيه عمق.. يطل منهما الذكاء و الدهاء.. قلبه قاس و مشاعره باردة.. و دائم الجلوس بمفرده كلما أتى إلى البيت.. و قليل ما

يفعل.. حتى عندما نجلس إلى مائدة الطعام.. يظل صامتا.. ينظر في طبقه.. و يطيل النظر إلى طعامه.. رغم أنه لا يأكل الكثير..

لا أدري ما سر نبذه لي.. دائما ما ينظر لي نظرات مريبة.. و كأنه يراقبني.. أو ينتظر مني أمرا ما.. يقلقه حالي.. و يتوجس خيفة من جلوسي كثيرا في غرفتي وحيدة.. لا أحد يدري شيئا عن الذي أفعله فيها.. فهو لا يملك الجرأة أن يدخل إلي منذ أن وضع بيني و بينه حاجزا لا أدري علته.. و لا يجرؤ أن يسأل جدي و جدتي عن أحوالي.. و لكنه يرقب من بعيد.. و ينتظر الخبر.. و لكن أخباري لا تأتيه فيشتاط غضبا.. إنه يتوقع أمرا ما.. أدلى له به عقله.. إنه يخمن أمرا.. و يبني تصوراته على تخميانته.. و الحقيقة أني أشعر بفرحة خبيثة تملأ صدري كلما رأيته حائرا.. أشعر أني بذلك قد انتقمت منه أشد انتقاما لاهماله لي..

هذا الرجل الغامض الذي يشبه كثيرا فارسا من عصر الملكة إليزابيث.. قد حطم بجاذبيته قلوب العذارى من حوله.. فكم من فتاة تطلب وداده و هو لا يبالي.. أي رجل أنت؟! .. أحمد الله أني ابنة أخيك.. حتى لا أقع في هواك.. و يحطمني غرورك..

و لكن رغم كل هذا الذي قاسيته معك من تجاهل و حرمان إلا أني كثيرا ما أرى في عينيك أشياء جميلة تخبئها لي في صدرك.. و تخبرني عنها عيناك.. و كثيرا ما استدعيتك في غرفتي لأحكي لك عن حالي عندما يضيق بي الحال.. و لا أجد من يؤنس وحدتي.. فأستدعيك آمرة إياك أن تأتي.. و لا تخذلني في أحلامي كما أنت معتاد أن تخذلني في واقعي.. و أجدك تلبي النداء.. و تأتي متلهفا.. و كأن بداخلك حديث طويل تريد أن تخبرني به.. يمكنني أن أستشعره في أنفاسك كلما رأيتني.. كلما جلسنا كأسرة نتناول الشاي في المساء صامتين عن الكلام و بداخلنا أحاديث لا نهاية لها..

و أبدأ معك حواري في خلوتنا التي أعددتها لنا.. أحدثك عن كل هذا الفراغ الذي أعانيه في غيابك.. و عن هذه القصيدة التي نقرأها سويا.. و نتقاسم شطريها.. تقرأ شطرا و أقرأ شطرا.. و لقد اخترت لك

قصيدة من قصائد نزار عن المرأة.. إذ نمسك بديوان نزار و نقرأ و لا أسمع من قصائد نزار غير صوتك يحدثني:

أشهدُ أن لا امرأةً

أتقنت اللعبة إلا أنت

واحتملت حماقتي

عشرة أعوام كما احتملت

واصطبرت على جنوني مثلما صبرت

وقلمت أظافري

ورتبت دفاتري

وأدخلتني روضة الأطفال

إلا أنتِ ..

لأشعرك بوجودي.. لأشعرك بأني امرأة ناضجة.. بأني امرأة تحتاج إلى من يستفز الأنثى بداخلها لترى ما يبهرك.. أنت صامت صامد في جلستك كرجل يحمل هم حبيبته على عاتقه.. و يخشى عليها من شيء هو نفسه لا يعرفه.. جالس كمحارب شجاع يحيط حبيبته بذراعيه خوفا عليها من مجهول يستشعره.. من خطر حتمي يجهله.. إنه يخشى عليها من شيء يتوقعه.. ينتظره.. و يحاول أن يستعد له.. يخاف أن يخبرها فتعيش في قلق و حيرة لا يقدر عليهما..

ترى: ما الذي يحيرك هكذا يا مالك؟! ما هذا الحدث العظيم الذي تكتمه بداخلك؟! ما هذه الهواجس التي تعتمل بداخلك و تجعلك دائم الصمت؟! .. كل ما فيك يحيرني معه.. و يجعلني في دوامة من الحيرة

و القلقلا تنتهي.. كأن الذي بيني و بينك يعود إلى حكايات العشق و الغرام التي سطرها التاريخ.. و ليس إلى صلة الدم التي تربطنا و بت أشك في حقيقتها كلما فكرت فيك كالحبيب المنتظر..

إنني أشعر في قرارة نفسي بأنك شديد الحرص من شيء يخصني.. هذا الشيء أبعدك عني كثيرا.. و أرهقك معه.. يمكنني أن أرى ذلك في ملامح وجهك المتعبة.. يمكنني أن أراه في قواك المنهكة..

إن ما يؤلمني حقا فكرة تتملكني بين الحين و الآخر أني خذلتك بشكل ما أحسه و لا أدركه..

***

ليس لي صديقات.. و لم أفكر يوما في أن أتخذ لي صديقة من بنات الحي.. فهن في نظري مجرد فتيات تافهات.. أخشى إن بوحت لهن بأسراري يفضحنني على الملأ.. فكم أكره فيهن تلك السذاجة.. تلك الغباوة.. و تلك الأفكار التقليدية البالية..

هذا الترفع مني قد وضع حاجزا بيني و بينهن.. ما عدا إيمان.. تلك الفتاة الحلوة الرقيقة التي تذوب عشقا في عمي مالك.. و تأتي بين الحين و الأخر لتسأل عني.. و قلبها يتمنى لقاءه صدفة.. و إن كان دائما ما يخيب رجاؤها.. فلا تلتقي و عمي مالك أبدا..

و أنا أعرف عن خيبة أملها.. و أفرح في نفسي الفرحة الخبيثة نفسها.. و أشمت لحالها.. و أتصنع تعاطفي معها.. فيهيئ لها أني أرغب في الحديث عن الأمر.. و تحاول هى أن تفتح الحديث.. فإذا بي أصدها.. و أغير الموضوع.. و أرى دموعها الحبيسة..

و في مرة قلت لها:

– إن عمي مالك لا يفكر فيها مطلقا.. و لا يمكنه أن يفعل.. فهو لا يحب مثل هذا النوع من الفتيات..

فصدمت فيما قلته لها و سألتني:

– ما الذي أعنيه؟!..

قلت لها:

– إن عمي مالك يبحث عن امرأة ثرية من عائلة ذات جاه و مال.. فهو يتطلع إلى حياة أكثر رفعة..

إنه من هؤلاء الذين لا يتزوجون إلا من سيدات المجتمع.. السيدة التي عندما تجلس بجوارها تمنحك شعورا بالرفعة.. مجرد وجودها بجانبه هذا كفيل بأن يمنحه قوة ليس بعدها قوة أخرى.. إنها القوة التي تستمد من شخصية امرأة ليست عادية.. امرأة لا ترتضي إلا بالتاريخ عرش لها..

أصبتها بحالة من اليأس.. فانهمرت دموعها فجأة حتى فزعت لها.. و كأني خاطبت فيها ذاك الجرح الذي لا يندمل أبدا.. لم أكن أتخيل أنها تحمل بداخلها كل هذه المشاعر.. و تحتمل كل هذه الآلام في حبه.. و ذهبت و لم تعد.. و ظلت فترة طويلة من الوقت لا تسأل عني.. و شعرت بالذنب.. و بدأ ضميري يؤنبني.. لماذا فعلت بها هذا؟! .. لماذا حرمتها الأمل الوحيد الذي تعيش عليه؟! .. و لكني أعرف عمي مالك.. فهو لا يلتفت لها.. و هى تعلم ذلك جيدا.. أي أني لم أبالغ فيما قلته لها.. حتى و إن أضفت له بعض الزيف..

لكن أي زيف يمكنني أن أضيفه مع مالك؟! إنه رجل مختلف و يبحث عن امرأة مختلفة.. فهل يا ترى إيمان من وجهة نظر مالك مختلفة أم أنها من النساء التقليديات؟! .. يمكنني أن أشعر هذا الحب الذي تكنه لمالك.. و لكن هل الحب وحده يكفي؟! ما الذي يحتاجه مالك من المرأة ليشعر باختلافها؟! ما الذي يحتاجه الرجل من امرأته لكي يشعر أنها مختلفة؟! لكي تغنيه عن نساء العالمين.. و يشعر معها بأنه الرجل الأوحد في الحياة..

إيمان فتاة مختلفة.. يمكنني أن أرى ذلك فيها.. نعم إنها مختلفة عن الأخريات.. ألا يكفيه أناقتها؟! .. إنها أنيقة للدرجة التي تشعر أي رجل بأنها ليست من هذا الواقع.. يمكننا أن نعتبرها امرأة قادمة من زمن جميل.. ما الذي يريده مالك في المرأة أكثر مما يوجد في إيمان؟! لا يهم أنها ليست ثرية.. لا يهم أنها

ليست مثيرة.. لا يهم أي شيء في مقابل هذا الجمال الغامض الذي تخبئه في منطقة ما من جوارحها و لا يمكن لأي رجل أن يكتشفه بسهولة.. هى أيضا تحتاج إلى من يستشعر تميزها ليميزها عن بقية النساء.. و إن لم يتمكن مالك من أن يحس ما بها فمعنى ذلك إما أنه ليس رجلا مميزا و هو ما أستبعده.. أو أنه أمام امرأة أخرى إن لم تكن تضاهيها فهى تعلو عليها.. أو أنه يلهث وراء السراب..

فكرت في أن أصلح هذا الجرم الذي ارتكبته في حقها.. ظننت أنه في إمكاني أن أقرب بينهما.. من يدري لعل و عسى؟! .. و لكن كيف مع هذا الرجل المتعجرف الغامض الذي يديم الصمت؟! .. كل ما لمسته فيه هو أنه طموح للغاية.. سمعته في مرة يقول لجدتي عندما كانت تكلمه عن فتاة اختارتها له:

– هل تظنين أني من الممكن أن أرتبط بمثلها؟! .. إنها أبعد ما تكون عن خيالي.. إنها ليست من الفاكهة التي أشتهيها..

إن و كيف تبكيني.. و كيف لها أن تعاملني كطفلها الوحيد.. تجعلني دائما أحتاج إليها في كل شيء.. حتى في ربطة عنقي.. تجعلني دائما أعود إليها حتى في أبسط قراراتي..

و رغم شدة غيظي منه إلا أني كتمت في نفسي صرخة أرادت أن تخرج بشدة من بين أضلعي لتقول له:

- من أنت حتى تتحدث على هذا النحو من الكبرياء؟!.. و لكني صمت لأني وجدت في احتياجه ما يجبرني على الصمت.. لأنه كما بدا لي احتياج جميل.. احتياج لن يجعله يفارقها أبدا.. و كأنه يخشى أن تضيع منه.. فلذلك هو يحرص على انتقائها انتقاء جميلا.. و إن كان فيه بعض المغالاة..

***

و أخذتني أيام و ليال أفكر في هذه الفاكهة التي يشتهيها:

- كيف تبدو؟! ما هى ملامحها؟! و أي الأشياء تقتني؟! في أي شيء تقضي وقتها؟! و أي الاهتمامات تستحوذ على فضولها؟! هل يبحث فيها عن جمال الروح أم جمال الجسد أم يريدهما

معا؟! كأنه يرغب بامرأة تكبر على يديه.. و تنضج من مبادئه.. و تستمد أنوثتها من احتياجه إليها.. و كلها أشياء يمكن لأي رجل أن يمنحها لامرأته.. و ليست قاصرة على امرأة بعينها.. ربما هذا هو الذي يقصده باختلافها.. أن يربيها على يديه و تربيه على يديها..

طالما أنه قارب سن الأربعين و لم يتزوج.. فمن المؤكد أنه لم يجدها حتى الآن .. أم أنه من هؤلاء الذين يكتفون بعلاقات الحب في حياتهما.. و لا يسعون إلى الارتباط.. و توثيق حبهم بميثاق شرعي.. ربما أنه يخشى قيود الحياة الزوجية.. ربما ليس لديه القدرة على تحمل المسئولية.. ربما أنه يدرك مدى جفائه.. و أثره على من يعيشون تحت وطئة هذا الجفاء.. كل هذه الظنون نالت مني.. و أنا أفكر في أمره..

قررت أن أدخل إلى غرفته.. تلك الغرفة الكئيبة التي خشيتها كثيرا.. خشيت الاقتراب منها.. لشعور داخلي بأنها لا تخبئ لي إلا الشر.. إنها غرفة محرمة.. فقد حرم علينا جميعا أن ندخلها إلا في أضيق الحدود.. بما تقتضيه الحاجة إلى دخولها..

دخلت إلى غرفته.. يسيطر علي خوف دفين.. أشعر أنفاسه تلاحقني.. و كأنه ورائي يراقبني.. ليرى ما سأحدثه بغرفته..

بحثت فيها عن شيء.. و لكني لم أجده.. كل الأدراج مغلقة.. و كل الأوراق مستترة.. لا يوجد شيء على مكتبه غير فنجان قهوة قد جفت بقاياه.. و بعض أعقاب سجائره..

تركت على مكتبه بطاقة مرسوم فيها وردة.. و مكتوب عليها أنت لي.. ثم خرجت يملؤني الرعب.. و يفزعني مجرد التفكير في ردة فعله..

ظللت مضطربة فترة من الوقت.. حائرة أفكر.. أفكر في إيمان.. و مدى فرحتها إذا استجاب عمي للأمر.. و تحركت مشاعره.. و أفكر في عمي لو أنه أعلن غضبه في وجهي.. و ما يمكنه أن يفعله بي.. كل ما يطمئنني معه أنه لا يدخل في حوار معي.. فهو دائما ما ينظر إلي من فوق.. كأنه يخشى أن يتحدث.. يخشى من شيء أحسه.. و لكني لا أستطيع أن أجزم به..

مازلت حائرة في غرفتي.. أدعو الله أن تأتي إيمان.. ليكون وجودها أمرا منطقيا في إقناع عمي مالك بأنها هى صاحبة الرسالة.. عندما يراها.. و يعرف أنها الوحيدة التي تتردد على المنزل.. سيربط بينها و بين الرسالة.. و ربما انتبه لها.. و وقع حبها في قلبه.. و دعوت بيني و بين نفسي قائلة:

- يارب تأتي إيمان يارب..

و لم تأت إيمان.. و لم يأت عمي مالك.. و طال انتظاري لهما.. و الحيرة و الشك يتجاذبانني:

- أيهما يأتي و يخيب ظني؟! .. من منهما يملي علي بقية الحكاية أم لن يكون للحكاية بقية؟! .. و أني وحدي من توهمت حكاية لا أساس لها..

فكرت طالما أني أجيد حياكة الحكايات.. فلم لا أكتب قصة من نسج خيالي؟! .. ربما ملأت هذا الفراغ الذي أعانيه.. نعم فأنا لدي من الخيال ما ينسج حكايات و حكايات.. و ليس حكاية واحدة..

سأتصور أشياء و أشياء يمكنها أن تربط بين إيمان و مالك.. و أكتب حولها قصتي.. و من يدري؟! .. ربما أصنع من الخيال ما يفوق الواقع بجماله.. و لكن.. كلما أفكر في هذا الأمر.. أمرهما.. إيمان و مالك.. أشعر بغيرة ما.. غيرة لا مبرر لها و لا معنى.. فأنا أحبهما.. و أرغب دائما في وجودهما بجواري.. و لكن.. لماذا أغار من مجرد التفكير في علاقة يمكن أن تربط بينهما؟!..

***

و بدأت أطرح بعض التساؤلات التي يمكنها أن تنسج في خيالي حكاية حب.. ترضي ذوقي.. و تملي علي عبارات الهوى:

- ما هو هذا الشيء الحائر بين الحبيبين؟!..

الشيء الذي يمكنه أن يصنع أجمل حكاية حب بين اثنين.. إني أري على وجه الحبيبين أحاسيس حائرة.. و دموع متناثرة.. و شفاه هامسة رغم صمتها..

– ترى ما الحديث الذي يتبادلانه في صمتهما؟! .. ما هى اللغة التي يتحاوران بها أثناء سكوتهما؟! .. و كيف يفهمان تعابير وجهيهما؟!..

ترى:

– أعمي مالك عاشق؟!..

لذا فهو دائم الصمت.. يحدث معشوقته بصمت لا يمكنني أن أفهمه.. أراه يحمل هما:

– فما الذي فعلته به معشوقته لتجعله دائم الشرود و الصمت؟! .. لماذا أنا دائمة الانشغال به رغم تجاهله لي؟! .. سامحك الله يا مالك..

و أحيانا كنت أربط في خيالي بين صورتي و صورة مالك بدلا من صورة إيمان.. لكم تمنيت أن أرتبط برجل مثل مالك.. أعرف أنه مختلف في كل شيء..

كنت أستدعيه لأقرأ عليه إحدى قصائدي.. كنت أتخيله جالسا بجواري.. و أنا أمسك بكراستي في خجل أقرأ له كلماتي.. و بصوتي بحة مخنوقة.. تداعب إحساسه.. فيقول لي:

– هل من مزيد؟!..

و أنا أقرأ و أقرأ له:

لطالما انتظرتك في خيالي

ولكنك أبيت أن تخضع لواقعي

وآثرت الرحيل في أوهامي

كم ناديت عليك بأدمعي!

ولهفة ما عهدتها في حياتي

كان في نفسي سؤال إليك

وحوار لا ينتهي في خاطري

كيف أسابق أعاصير الحياة؟!

دون أن تعصف بي رياح الآلام

وأمطار الأحزان

قل لي ولا تكتم شكواك

بداخلي

فما عدت أحتمل صمتك

فى كياني

أراك تعشق أناتي

وتستريح على آهاتي

فمالك أصبحت تهوى

عذابي

لا تقف هكذا...

صامتا جامدا

كصخرة من ثلج

أفقدتها برودة الشتاء

دفء الإحساس

هل علمت يوما؟!

أن جمودك هذا

يحطم فيك نبضي

ويترك قلبي وقد

رحل عنه سر بقائه

ارحم هذا الضعف

بداخلي إليك

ولا تستمد منه كيانك

لا تبني قواك على أنيني

وتعزف لحنك بهذياني

لا تكتبني قصيدة

في زمن لن يأتي

ضمن الأزمان

لا أريدك ذكرى

أو سرابا في عالمي

أريدك حياة أبدية

لا تعاني مرارة الفراق

ليت حنيني إليك يسكت

لعلي أجافي هواك

أو تشعر هذا الحنين في

نفسي

فتلبي النداء

***

كل ما أتمناه في هذا الوقت من عمري أن أخترق حياة هذا الرجل.. و أعبث بها قليلا.. لعلي أكتشف أشياء تثيرني معها و تشغلني.. بدلا من هذا الركود الذي أحياه.. أتمنى شيئا يجعلني أراقبه عن بعد.. و أتعمق فيه أكثر.. كم أحلم بأن يقرأني من داخلي.. و أن ينظر لي من الناحية الأخرى.. ربما اكتشف في أشياء تروقه.. و عندها ستتغير نظرته لي..

طرأت لي ذات مرة فكرة مجنونة.. لا أدري من أين لي بها؟! .. فكرت أن أنتظره عندما يحن علينا.. و يأتي لزيارتنا.. و قليل ما يفعل منذ أن أصبحت صبية.. و عندما شعرت به يفتح الباب بمفتاحه.. جريت إليه.. و ألقيت بنفسي عليه.. أتشبث به و أقول له:

– ضمني يا مالك ضمني..

و بعدما أدركت أني نطقت اسمه دون أن أسبقه بعمي ارتبكت.. و تصلب جسمي بين ذراعيه.. كان هو أيضا متصلبا.. و كأنه صعق بمجرد أن ارتميت في حضنه.. نظرت إليه لأرى ملامح الفزع علي.. قد ارتسمت على وجهه.. و ظل صامتا.. قلت له:

– أنا خائفة..

– خائفة؟!..

– خائفة من ذاك الكابوس الذي يلاحقني.. كلما أغمضت عيني أراه.. بت أخاف أن أنام..

أحاطني بذراعه اليسرى.. و سار بي إلى غرفتي.. أنامني على سريري.. و أمسك بيدي ثم قال لي:

– احكي لي عن هذا الكابوس..

حكيت له عن ذاك الكابوس الذي كنت أراه بين الحين و الآخر في منامي.. كنت كلما رأيته أفزعني كثيرا.. و لكني أتناساه مع الأيام إلى أن يغيب و يعاودني ثانية.. ما كان في نيتي أن أحكي لمالك عنه.. غير أني وجدته الشيء المناسب الذي قد يمكنني من التواصل معه.. ربما اهتم لحالي بعد أن يعرف.. حكيت له عن ذاك الحلم المخيف قلت له:

– دائما ما أرى في منامي أني أجري من شيء يلاحقني.. لا أراه و لكني أستشعر وجوده ورائي.. شيء كالشبح يطاردني.. كلما جريت يجري ورائي.. و إذا وقفت أجده أمامي.. يحاصرني.. و في مرة عندما جريت منه و لم أتوقف.. سقطت في حفرة.. و الغريب أنه كان يمد لي يده ليخرجني.. لم أستطع أن أعطيه يدي ليشدني.. كنت خائفة منه لدرجة الفزع.. و فجأة ظهرت أنت.. تنظر إلي من بعيد.. تحاول أن ترى ملامح الشخص الذي يحاول الخروج من الحفرة.. و لم تنتبه للشبح.. ناديت عليك:

– مالك .. مالك ..

فعرفتني من صوتي.. و أتيت إلي مسرعا تقول لي:

– لا تخافي يا آسيا .. أنا هنا من أجلك..

و وجدتني أنظر إلى الشبح.. فانتبهت له.. و دفعته بكلتا يديك لتبعده.. ثم مددت لي يدك.. و أخرجتني من الحفرة.. و أنا أتشبث بك بكل قوتي.. و بمجرد أن خرجت من الحفرة.. احتضنتك.. أنظر

إلى الشبح باستغراب.. فهو لا يحرك ساكنا.. و لم يحاول أن يؤذينا.. و بعدها.. أستيقظ من النوم خائفة أرتجف.. أحتاج أن أرتمي في حضنك.. و لكني لا أجدك..

كان مالك ينصت باهتمام لحديث آسيا.. ثم أطبق على يدها بيديه.. و قال لها:

– آسيا .. سواء كان للحلم معنى أو لم يكن.. عليك أن تعرفي شيئا.. أنا هنا دائما موجود من أجلك.. لن أسمح لأي خطر أن يطول منك..

– و لكنك دائما غير موجود..

– أنا قريب منك أكثر مما تتصورين..

– كيف؟!..

– آسيا .. عاهديني..

– أعاهدك؟!..

– عاهديني أن تثقي في..

– أثق فيك..

– ثقي بأني قريب مهما ظننت أني بعيد..

سكت لا أفهم:

– كيف يكون قريب و بعيد في الوقت نفسه؟!..

قال لي:

– عاهديني يا آسيا..

– أعاهدك..

أطلق آهة.. ثم قبل جبيني.. و تمنى لي أحلاما سعيدة.. و رحل..

ظللت أفكر و أتساءل في حيرة:

– كيف يكون قريبا و لا أراه إلا بالكاد؟! .. أحتاج أن أحس قربه.. أحتاج أن أفهم.. أن أتذوق قربه مني.. و أن أذيقه قربي منه..

تغير كثيرا هذا الرجل منذ أن أصبحت صبية.. أصبح أكثر خجلا مني.. أحس و كأن حاجزا يقف بيني و بينه.. كم مرة لامته عيناي على بعاده! .. كم مرة حاولت أن أداعبه و أتدلل عليه لأستعيده! .. و لكن دون جدوى حتى أحبطني.. و اضطررت للاستسلام.. و تحول ما بيننا إلى جمود.. ليتني أعود طفلة ثانية ليعود إلي.. ليعود و يحملني بين يديه كما كان يفعل.. ليعود و يقبل جبيني.. و يداعب أنفي.. ليته يعود ثانية.. و يحضر لي الحلوى التي كان يحضرها لي.. ليرسم الفرحة على وجهي.. ليته..

***

انتبهت في ساعة متأخرة من الليل على صوت باب المنزل يفتح و يغلق بصوت خافت.. فعرفت أنه عمي مالك.. و شعرت أنه يقف يتصنت علي.. ما الذي يثيره في؟! .. لماذا يشك في أمري؟! .. لم أوح إليه مطلقا بحاجة يمكنها أن تجعله يشك في حالي.. هل رأني يوما و أنا أهيم فرحا أو أخرج من البيت كثيرا؟! .. فأنا دائمة الصمت و الحزن.. حبيسة غرفتي.. فمن أين له بهذا الشك؟! .. ربما من طبعه أن يشك.. إنه كشخص يدعو للشك.. قد يظن أننا كلنا مثله ندعو للشك و الريبة.. ربما هو قربه مني الذي حدثني عنه على طريقته الخاصة.. ما عدت أدري شيئا معك يا مالك.. أأنت قريب أم بعيد؟!..

استشعرت أن عمي مالك قد دخل إلى غرفة مكتبه.. ظللت حائرة .. أمشي في أرجاء الغرفة بخطوات مترددة أتساءل:

– يا ترى هل لاحظ الورقة؟!..

و بعد فترة طويلة من الوقت شعرت بباب البيت يفتح و يغلق.. فاستغربت:

– متى جاء و متى ذهب؟!..

و استجمعت قواي و ذهبت إلى غرفته.. و وجدت الورقة مازالت في مكانها على المكتب.. فبهت.. و قلت في نفسي:

– كيف هذا؟!..

معقول لم يلاحظها أم لم يهتم لأمرها!! .. ألم يثره حتى أن يتساءل:

– من الذي وضعها على مكتبه؟! .. ألم يثره أن هناك من دخل غرفته؟! .. من هذا الرجل العجيب؟! .. من هو لكي يتجاهل رسالة حب؟! .. غير معقول ألا تثيره الرسالة..

يااه! .. معقول أنه ظن أنها مني.. و يرد عليها بتجاهله لها.. رحماك يا ربي! .. ما الذي يفعله بي؟! .. أليس من المفترض به أن يعوضني عن أبي؟! .. و لكني أراه يحرص على تحطيمي.. سامحك الله يا عمي مالك..

و فجأة وجدته أمامي.. كان قد خرج و عاد هكذا في غمضة عين دون أن أنتبه.. وقفت أمامه يتملكني الرعب.. نظر لي باستغراب.. و كأنه يسألني:

– لماذا أنت هنا؟!..

و لا أدري لم تملكني الغيظ من هذا الموقف الذي وضعني فيه؟! .. فقررت أن أقابل إحراجه لي بتحد من النوع الذي يغتاظ منه..

سألته في جرأة غير معهودة:

– لماذا تشك في؟!..

و نهرته بعيني.. و كأني أعيد عليه سؤالي.. و أنتظر إجابته..

قابل جرأتي بجرأة طلت من عينيه.. و قال لي بتحد غريب:

– لأن العين عليك .. و لن أسمح لأحد أن يمتهن كرامتي.. أم نسيت؟!..

قلت له و غيظ شديد يملؤني:

– تحرم الحب علي و تحلله لك .. أي منطق هذا الذي تحدثني به؟!..

رد علي بجفائه المعتاد:

– المنطق الذي لا أجيد غيره.. لو أنك حاولت ثانية أن تنالي من كرامتي بتصرفاتك الصبيانية فلن تجدي مني ما يرضيك.. و دون أن أرد عليه.. أو أنطق بكلمة.. قررت أن أنتقم منه.. و أعاند منطقه.. و ليفعل في ما يشاء..

– أهذا هو قربه مني الذي عاهدني عليه؟! .. آملت بالفعل أن يكون قريبا.. و يسألني عن الورقة التي تركتها له..

أحسست بالحيرة في نفسي:

– ربما ظن أنها من تصرفاتي الصبيانية.. لذلك نهرني و لم يلتفت إليها.. طالما أنه يعرف في قرارة نفسه أنه قريب.. و لن يخذلني إن حدث شيء..

– و أي شيء يمكنه أن يحدث لي و يجعله بجانبي؟!..

لقد تخلى عني في محنتي الأولى.. و ضاق بي.. خاصمني و جافاني.. و كأنه يثأر مني لكرامته المجروحة.. لم أعد أحتمل أنانيتك يا مالك.. لم أعد.. أختنق في وجودك.. و أختنق في بعدك.. متى يمكنني أن أتحرر؟!..

***

إنه مازال يعايرني بتلك الوقعة التي مررت بها ببراءة الصبا.. في وقت كنت أحتاج فيه لمن يطبب جرحي و لم أجده.. بعد حادث التصادم الذي وقع لوالدي.. و أصابني بحالة من الانهيار.. كدت أن أتخلى فيها عن كل معتقداتي.. و ما آمنت به يوما.. لولا هذا الشاب العربي الذي جاء ليسكن الحي في العمارة المواجهة لنا.. لألتقي به كل مساء من وراء ستائر نافذتينا.. فقد كنت أعاني اضطرابا نفسيا غير عادي في مساء ألقى لي فيه بوردة و لكني لم أنتبه.. و في كل مساء كنت أتخبط فيه كان يلقي لي بوردة دون أن أنتبه.. و في ليلة عاصفة تشبه تلك الليلة التي وقع فيها الحادث الأليم.. عاودتني الذكريات.. و أخذت أتخبط و أصرخ في نفسي.. و خرجت إلى شرفتي أتأمل سقوط الأمطار.. و أبكي بدموع غزيرة.. و انتبهت أخيرا إليه.. و هو يحاول أن يحدثني بكلمات هامسة.. ضاعت أحرفها مع صوت سقوط المطر.. و تلك المسافة الواسعة التي تفصل بين العمارتين.. أحسست بالحرج منه.. لا أحب أن يرى أحد ضعفي.. فدخلت إلى غرفتي أستغرب الأمر.. و أتساءل:

– من يكون هذا الشاب؟!..

شكله ليس غريبا علي.. ملامحه تبدو مألوفة لي.. كأني رأيته من قبل.. أو ربما توافق أرواحنا جعلني أشعر و كأني أعرفه من زمان..

شعرت بإرهاق شديد.. فارتميت على السرير.. و رحت في نعاس عميق.. و في مساء اليوم التالي تذكرت هذا الشاب.. و وقفت في الميعاد نفسه أبحث عنه.. فوجدته يشير لي من وراء النافذة.. ارتبكت

في نفسي ثم رأيته يلقي بوردة إلى شرفتي.. و نظرت إلى الوردة الملقاة على الأرض.. لأجد ورودا أخرى.. فاندهشت.. و خرجت إلى الشرفة.. و جمعت الورود الملقاة على الأرض.. و دخلت بها إلى غرفتي.. و وجدتها كلها من الورد الأحمر البلدي.. و أخذت أتأملها و أستغرب:

– منذ متى و هو يلقي بها؟!..

و رأيت أنهن سبع وردات.. أي أنه من أسبوع و هو يلقي لي بالورد.. و أنا لا أنتبه..

كان يحاول أن يقول لي شيئا و لكني لم أتبينه.. و رأيته يدخل إلى حجرته.. و جلس إلى مكتبه.. كان يكتب شيئا على ورقة.. و بعد أن انتهى.. طبق الورقة و ألقى بها إلي.. خرجت إلى الشرفة.. و أخذت الورقة من على الأرض.. و دخلت بها إلى غرفتي.. و قرأت ما بها:

– هناك شيء يجذبني فيك .. لا أدري ما هو و لكني أحسه .. شيء أشبه بالحنين إلى غائب..

ارتجف قلبي.. و لا أدري لم شعرت بالحنين نفسه الذي يحدثني عنه؟! .. طويت الورقة.. و احتفظت بها في درج مكتبي.. و توالت رسائله.. و في كل رسالة منه أجد معنى يقربني إليه أكثر..

كتب لي في إحدى رسائله:

عندما وقعت عيناي عليك شعرت بوخزة في قلبي.. في ملامحك شيء يؤثرني لديه.. لم أكن أتوقع وجودك في مثل هذا الزمان.. فقد كان يهيئ لي أن الزمن قد توقف عن العطاء.. و لا يمكنه أن يمنحنا فتاة تشبه فاتنات الفن الجميل.. أو يجود بك في مثل هذا الوقت الذي تندر فيه النساء الرائعات..

هل أقول:

– إنك نفحة منهن؟!..

لا أدري .. ربما ..

هل أقول:

– إنك تشبهين إيمان في أغنية على فين وخداني عينيك؟! .. هل تعلمين أني أمتلك لوحة تشبه لوحة الأغنية؟! .. لقد أمست الفتاة التي في اللوحة بالنسبة لي هى أنت.. كلما أشتاق إليك.. أنظر إليها.. و أمني النفس..

هزتني كلماته إلى درجة لم أكن أتخيلها.. أحقا أنا أشبه فنانات زمان؟! .. أحقا أنا أشبه إيمان في فيلم علموني الحب؟! .. أحقا أنا أشبه فتاة في لوحة؟!..

تولد بداخلي حنين إليه.. حنين غريب.. لم أعهده من قبل.. أشعر معه بحزن دفين.. و استمعت إلى أغنية على فين وخداني عينيك.. أتخيل نفسي البطلة و هو البطل؟! .. هو يغني لي على فين وخداني عينيك يا ساقيني الشوق بإيديك.. و أنا أتدلل عليه بفستاني الأبيض.. كمشهد الأغنية في الفيلم.. ياااه ما أجمله من إحساس!..

و في رسالة أخرى كتب لي:

– وردة واحدة ترويها دموعك كفيلة بأن تمنحني الحياة..

لم أفطن إلى المعنى من وراء رسالته إلى أن أشار لي بيده.. و هو ينظر في ساعته.. و كأنه يذكرني بموعد بيننا نسيته.. فعرفت أنه يقصد من رسالته موعدا بيننا.. و أن الوردة الواحدة أي أن موعدنا الساعة الواحدة.. و الدموع هى لقاؤنا عند النيل.. أما لقاؤنا فهو الحياة التي سيمنحها له لقائي به.. أعجبتني طريقته في طلب لقائه بي.. و قررت أن ألقاه في الموعد.. و نزلت في الميعاد.. واتجهت إلى ناحية النيل.. أمشي ببطء.. و وجدته خلفي يتبعني.. و اقترب مني.. و أعطاني وردة.. و همس لي:

– أشكر لك حسن ظنك بي..

قلت له:

– ماذا تريد مني؟!..

قال لي:

– لا أريد شيئا..

قلت له:

– إذن لماذا طلبت أن تراني؟!..

فقال لي:

– و هل تسئل الوردة لم تحن إلى قطرة الندى؟!..

فصمت طويلا.. و ترغرغت عيناي ببعض دموع..

فسألني:

– ما الذي يبكيك؟!..

و لم أجد أمام تساؤله إجابة غير أني شعرت بمزيد من الحنين إليه.. ذاك الحنين الذي حدثني عنه في إحدى رسائله.. و تولد بداخلي بدخوله حياتي..

و من وقتها نلتقي في لقاءات من أجمل أيام عمري التي لم أحسب بعدها عمرا آخرا.. عاش معي سنوات من العمر.. حتى جاوزت مرحلة الصبا.. و نضجت أكثر على يديه.. لقد منحني الحياة بمعناها الحقيقي.. الحياة في رضاها عنا.. و ما يمكن أن تمنحه لنا في وقت رضاها..

– ما أجملك أيتها الحياة عندما ترضين!..

تذوقت معه السعادة على نحو مختلف.. و عرفت أن لا سعادة إلا عندما تضمنا ابتسامة واحدة.. و تعطف علينا ضحكة خجولة.. و مساء يشجينا من طربه..

كان كلما لقاني أخذ بيدي و همس في أذني:

– أشهد ألا امرأة إلا أنت..

هذه الجملة كانت كفيلة بأن ترحل بي في مراحل من النشوة و اللذة.. و كل المعاني التي تسكرنا.. و تغرقنا في أوهام لذيذة.. ليس لها وجود إلا في واقع آخر لم نعد نحياه..

كان لوقع الأغاني التي اعتدنا سماعها سويا وقعا غريبا.. لا يمكنني أن أجد له تفسيرا منطقيا.. يخبرني عن حالة النشوة التي أحسها في وجودي معه..

معه نسيت إحساسي باليتم.. و غرقت في لذة ليس لها نهاية.. نسيت العالم من حولي.. نسيت بنات الحي و صبيته.. نسيت أنه هناك من يتهامس علينا.. نسيت عمي مالك.. لقد أعطاني حياة.. فكيف لي أن أتخلى عن حياتي معه؟!..

إنه كان فارسا بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. و لا يمكنني أن أصفه بوصف غير هذا.. كنت أرى في أعين الفتيات من حولي نظرة حسد على وجود مثل هذا الرجل في حياتي.. فكم منحني من روائع الأحاسيس!..

أتذكر في موعد كان لنا.. سبقني إليه.. إلى حيث ننتمي.. إلى المكان الذي شهد على حبنا.. في شبه جزيرة قريبة من شاطئ النيل.. وجدته ينتظرني و معه عدته.. سحرني بأنشودته التي أعدها لي.. إنها حقا أنشودة الحب الخالد..

بداية.. سمعت صوت التسجيل يرسل لي بأغنية على فين وخداني عينيك لسعد عبد الوهاب.. لم أصدق نفسي وقتها.. إنه يعرف أنها أغنيتي المفضلة.. ربما رأني و أنا أرقص عليها في غرفتي.. و أحلم بفارسي المنتظر.. مد لي يده ليمسك بيدي.. و يجعلني أرقص رقصتي المعهودة.. ارتجف قلبي.. و كاد نبضه أن يتوقف.. و لا أدري كم رقصت معه على أنغام الأغنية.. فقد كانت الأغنية تتكرر.. كلما انتهت تبدأ من جديد.. غمرتنا سعادة حالمة.. و أخذتنا نشوة زاهدة إلى مكان آخر.. لا يمكن أن يكون موجود على هذه الدنيا..

و في كل لقاء كان لنا.. يدخلني في حالة من الذهول.. كان شابا ثريا ثراء غريبا.. وسيما بشكل ساحق.. له من الجاذبية ما يجعله متميزا في كل حركة له.. إنه وجه سينمائي لم تكتشفه شاشات السينما بعد.. أثرني بمشاعره دون بقية فتيات الحي.. و لما سألته:

- لم أنا؟!..

أجابني:

- و هل تسئل الروح لم تعانق الجسد؟! .. اعلمي أن حبنا حبا كاثوليكيا.. حبا أبديا لا يعرف انتهاء..

دائما ما يسلب فؤادي بأقواله.. أين أتقن هذه الكلاسيكية في أسلوبه؟!..

أغدق علي بهدايا ثمينة.. هدايا مبالغ فيها بالنسبة لشاب في مثل عمره.. و لكن كونه شابا عربيا جعل من الأمر بالنسبة لي شيئا منطقيا.. كنت أحاول أن أبحث عن مبرر منطقي يرضيني حتى لا أرهق نفسي بكثير من الظنون التي لا مجال لها.. فقد عشقت فيه دلاله لي.. و عنايته الخاصة باحتياجاتي.. و أحيانا ما كنت أثتثقل الأمر على نفسي و أخبره:

- أخشى أن أثقل عليك..

فيقول لي بثقته المعهودة:

- لا أبدا .. ليس هناك ما يدعو لذلك..

- ما الذي تقوله بالله عليك؟!..

- أقول ليس في الأمر حرجا إطلاقا..

- تغدق علي بكل هذه الهدايا .. إنك تبالغ..

- لا أبالغ .. فأنا شاب غني..

– ربما يؤثر عليك إنفاقك علي بهذا الشكل..

– بل يسعدني كثيرا..

– أتعرف؟! .. يسعدني أيضا..

ابتسمت له بخجل.. و ابتسم لي نظرة إعجاب.. و قال لي:

– لك ابتسامة مميزة..

سألته بخجل:

– كيف؟!..

قال لي:

– لا أدري..

صمت قليلا ثم قال:

– هو شيء حباك الله به..

قلت له:

– كل واحد فينا لديه شيء مميز.. لست أنا فقط..

– ربما..

– لا بل من المؤكد.. على سبيل المثال.. عمي مالك..

انتفض في نفسه.. و نظر إلي نظرة حادة.. و سألني بحدة:

– ما له؟!..

– استغربت أسلوبه الحاد:

– لا أبدا.. ليس به شيء.. كنت فقط سأخبرك عن الشيء الذي يميزه.. ما الذي أزعجك هكذا؟!..

– لم أنزعج.. لا عليك..

لم أدرك سر انزعاجه.. و ظننت أنه شعر في نفسه بالحرج للعلاقة التي تربط بيننا.. و لا يمكنه أن يصرح بها في الوقت الحالي.. نظرا لعدم رغبتي.. و عدم استقراره في مصر.. واصلت حديثي قائلة:

– لدى عمي مالك غمازة أسفل ذقنه تميزه.. و تجعله أكثر جاذبية..

كان مازال متوترا.. لم يكن ينظر إلي.. و أنا أتحدث عن مالك.. و لكي أغير مجرى الموضوع.. أخرجت من حقيبتي مرآة.. و وجهتها إليه.. و قلت له:

– أرأيت؟! .. إن لك مثل الغمازة التي لمالك..

فنظر في المرآة دون اهتمام.. ثم ركز نظره و ابتسم.. و قال لي:

– تصدقين .. نعم..

و ضحكنا بصوت عال.. كان يداعبني.. و كأنه يخبرني بأنه أول مرة يلتفت للغمازة التي في ذقنه..

و أمسك بكلتا يدي يقبلهما.. ثم وضع خده عليهما.. و غفا قليلا.. همست:

– جاسر .. جاسر..

ثم قلب يدي و دفن وجهه في كفي.. و أصدر تنهيدة عالية.. قلت له:

– مالك يا جاسر..

قال لي:

- لا شيء.. أحتاج أن أرتاح..

تجمعت في عيني دمعتان و قلت له:

- ترتاح!! .. من أي شيء؟!..

- من هذه الحياة القاسية..

سألته و قد اغرورقت عيناي بالدموع:

- و هل تقسو عليك الحياة؟!..

- أكثر مما تتخيلين..

قلت له:

- كنت أظنها تقسو علي وحدي..

رفع رأسه و نظر إلي بعينيه النادية و سألني:

- في أي شيء تقسو عليك الحياة؟!..

نظرت بعيدا أخشى تساقط دموعي.. و أخبرته عن هذا اليتم الذي أحسه:

- جعلتني يتيمة.. و ما أقسى الإحساس باليتم! .. شعور مؤلم.. يجردك من كل مشاعرك.. جفاء ما.. يمد يده إلى صدري يعتصره.. ليترك آثاره و يرحل..

- معك حق.. أن تعيش يتيما في هذه الحياة.. إحساس لا يوصف..

- إحساس كئيب.. يجعلني في زاوية بعيدة مهملة..

وضع برأسي على صدره و همس لي:

– لا عليك.. سأكون لك الأب و الأخ و الصديق و الحبيب.. لن تشعري معي بأي يتم.. سأسد هذا الفراغ الذي يؤرقك.. و لكن لي عندك رجاء..

سألته بصوت مجروح:

– ما هو هذا الرجاء الذي تسألنيه؟!..

– كوني لي الوطن.. الوطن الذي ألجأ إليه فلا يردني.. الوطن الذي أحتمي به فلا يلفظني..

وعدته أن أكون له الوطن الذي يريد.. إنه يمنحني الكثير.. فكيف لا أكون وطنه؟! .. إنه أماني في هذه الدنيا بعد الله..

***

و مرت أيام التقينا فيها في كل مساء.. و عانقت روحانا الحب الأفلاطوني.. و هاجرنا إلى المدينة الفاضلة.. و عشنا عصر الفرسان.. و لكن هل تظل الحياة على رضاها أم أنها متقلبة المزاج؟!..

عرف عمي مالك بحكايتنا.. و شعر بطعنة في كبريائه.. و كأني بحبيبته التي خانت عهده..

لا أدري ما الذي حدث بالضبط؟! .. و لكني فقدت كل المعاني الجميلة التي تقاسمناها سويا.. لقد اختفى من حياتي اختفاء مؤلما.. دون كلمة وداع واحدة.. رحل و ترك الحي.. و كم من مرة انتظرته في شرفتي.. ليلقي لي بوردته و لكنه ما كان يفعل.. و دخل علي عمي مالك.. و أنا في حالة انتظار له.. يمزقني الشوق.. و أكتم صرخة بين أضلعي..

نظر لي بكبرياء و قال لي دون مقدمات:

– لقد رحل و تخلى عنك.. عار عليك أن تظلي على عهده و قد خان العهد..

صعقتني كلماته.. و آذاتني كثيرا.. و ارتجفت من أسلوبه.. و تمنيت أن ألقي بنفسي عليه.. لأحكي له عن عذابي و ما أعانيه.. و لكنه نهرني بنظرة من عينيه.. جعلته أكثر بعدا عني.. و لم تزدنا الأيام إلا بعادا..

لم أؤنب نفسي على هذه العلاقة التي عشتها مع ذاك الشاب العربي الحالم.. و لكني ظللت أتساءل في نفسي:

– ما الذي جعله يتركني على هذا النحو؟!..

و ظللت أتذكر نظرة اللوم الممزوجة بالدموع في عيني مالك:

– ألهذا الحد قد خذلته؟!..

و رغم قسوته معي إلا أني غضبت من نفسي لأني خيبت ظنه في..

و مرت بي الأيام.. و أطيافه تلاحقني حيثما ذهبت.. و هدأت مشاعري.. و لكني أيقنت بداخلي أني لن أجد مثل هذا الحب ثانية.. و لن أجد رجلا مثله يدخلني في انفصام عن العالم من حولي.. و يرحل بي إلى دنيا أخرى غيره.. و كتمت حسرتي في نفسي.. و عشت حياتي أعاني صراعا نفسيا مريرا.. و عاودني إحساسي باليتم ثانية.. و لم يفارقني هذه المرة.. لأنه لم يتمكن أحد غيره من أن يسكن قلبي..

إن مثل هذا الحب لا يمكن أن يأتي إلا من رجلين اثنين: إما مالك أو جاسر..

***

و أخيرا جاءت إيمان لتزورني بعد طول غياب.. و جلست معي تشعر باشتياق لي.. و كأنها تحتضن في صورة عمي مالك.. فهناك شبه ما يربط بيننا.. ربما خمريتنا.. أو عينانا الداكنتان العميقتان بلون الليل وقت السحر.. مشدودتان قليلا.. و بهما حور خفيف.. كما أني مثله طويلة.. رفيعة.. شعري أسود.. متوسط الطول..

قالت لي إيمان:

- أتعرفين يا آسيا أجمل ما فيك عيناك؟..

ضحكت بفرحة و سألتها:

- لم؟!..

فأجابتني:

- فيهما كثير من عمك مالك..

فقلت لها:

- أها.. الآن فهمت لم يعجبانك كثيرا..

فضحكت و سرحت بعيدا.. و كما يبدو لي أنها سرحت فيه و في عينيه.. و بعدها سألتني:

- هل لديك حساب على الفيس؟!..

فنظرت إليها في غباء مصطنع.. و قلت لها:

- لا .. ليس لدي صفحة..

فاستغربت لأمري و قالت لي:

- كيف و أنت مثقفة و أعرف أنك من هواة القراءة؟!..

فقلت لها:

- و لكني لست من هواة التواصل الاجتماعي..

قالت لي:

– لذلك لا تختلطين بأحد..

قلت لها:

– نعم..

قالت لي:

– هل يضايقك وجودي؟! .. هل أفرض نفسي عليك؟!..

قلت لها:

– بالطبع لا .. إلا أنت .. فأنت تروقين لي..

– و لم أنا؟!..

– لا أدري..

صمتت ثم فجأة قالت:

– هاتي جهازك أعمل لك صفحة على الفيس..

قلت لها:

–لا و الله .. لا أريد.. اعفيني..

– حتي لو عرفت أن عمك مالك لديه صفحة..

نظرت إليها نظرة بلهاء.. و قلت لها:

– صحيح!..

قالت لي:

– نعم..

قلت لها:

– و ما أدراك؟!..

– لقد اقترحها لي الفيس بوك..

–لا أفهم..

– طبيعي..

– انظري إلي.. عندما تنشئين صفحة على الفيس سوف يقترح لك بعض الأصدقاء.. و خاصة الأصدقاء في منطقتك..

– أتريدينني أن أبتعد عنهم في الحقيقة لألقاهم على الفيس؟!..

– و لكن الفيس أمره مختلف.. له مذاق خاص..

–لا أريده..

– جربي فقط.. و لن تخسري شيئا..

– كيف؟!..

– أن تكوني في أول الأمر متخفية.. و بعد أن تدرسيه جيدا اظهري لنا..

– لا أفهم..

– اسمعيني.. أنا سأرشدك إلى كل شيء.. و بعدها قرري إن كنت تريدين الاستمرار.. أو أغلقي صفحتك نهائي.. هاتي جهازك و تابعيني.. و ستفهمين ما أعنيه..

– و لماذا تصرين على أن يكون لي صفحة على الفيس؟!..

– صراحة..

– يا ليت..

– لتكون صفحتك صلة بيني و بين مالك..

– أنت لا تفكرين إلا في مالك!!..

– سامحيني يا آسيا.. عندما تحبين ستتفهمين مشاعري..

***

و بدأ عهد لي مع الفيس بوك.. و كل ما أهمني وقتها أن أرى الوجه الآخر لمالك.. فدخلت إلى صفحته..لأتعرف على ما فيها.. وجدت ما لم يمكنني أن أتوقعه.. وجدت رجلا آخرا غير هذا الذي أعرفه.. وجدت رجلا عاطفيا.. يتحدث عن المشاعر و الأحاسيس.. و وجدت لديه الكثير من الأصدقاء و الصديقات.. و تعليقات من صديقاته جعلتني أشعر بقليل من الغيرة.. أو ربما كثير.. و تذكرت إيمان.. و قلت في نفسي:

– كان الله في عونك..

وجدت صوره تملأ الصفحة.. صور اكتسب فيها وسامة غير معقولة.. كدت لا أصدق أن هذا هو عمي مالك.. و لا أدري لماذا يخفي هذا الجانب عنا؟! .. و ابتسمت و كأني تصالحت معه.. و قلت في نفسي:

– يبدو أن هذا المجتمع سيروق لي..

منعني كبريائي من أن ألفت نظر مالك إلى صفحتي.. رغم ما استبد بي من شوق لأن يعرف.. لأرى ردة فعله.. و أسلوبه في التعامل مع هذا الأمر الذي حتما سيصيبه بصدمة..

استغربت أمرا قالته لي إيمان.. قالت إن الفيس بوك سوف يقترح لي الأصدقاء الذين في منطقتي.. و الفيس اقترح لي صفحة مالك.. و هذا يعني أنه يسكن في المنطقة نفسها التي نسكن فيها.. إذن .. فهو قريب كما أخبرني.. و لكن كيف عرفت إيمان؟! .. ربما رأته .. فهى تسكن في المنطقة.. ربما أنها تخمن الأمر..

لا يهم .. يكفي هذه الصفحة التي أهدتني إياها إيمان.. ربما هى التي تقرب بيننا.. ربما يقرأني كما تمنيت.. و يرى في ما تمنيت أن يراه.. يراني كيف أبدو؟! .. ما هى اهتماماتي؟! .. يراني في بعض صوري.. قد تعجبه و تلفت نظره..

و لماذا يهمني أن يرى مالك كل هذه التفاصيل؟! .. لماذا يا آسيا يشغلك مالك على هذا النحو؟! .. هناك شيء يشدني إليه.. أحب هذا الرجل كثيرا.. و أفخر بكونه عمي..

***

كان أول طلب صداقة تلقيته هو طلب إيمان.. و قررت أن لا أقبل أي طلب سوى من يروقني.. و طالما أن مزاجي صعب.. و طبيعتي لا تقبل أحدا بسهولة.. فكان علي أن أنتقي أصدقائي..

و قرأت كتابات إيمان على صفحتها.. و وجدتها خواطر مؤلمة.. تتحدث عن ذاك الحبيب الحاضر الغائب.. و كم هى تعاني في وجوده و في غيابه.. و تأثرت لحالها.. و رق قلبي لها.. و لكني لم أستطع أن ألوم مالك في نفسي.. و أنا أعلم أنه ذاك الحبيب المجهول الذي تنشده بمنشوراتها.. هى تنشر أحاسيسها على صفحتها على أمل أن يقرأ مالك.. و يشعر بها..

كان هناك رجل على صفحتها.. كثير العناية بها.. يهتم لأمرها بشكل ملحوظ.. يعلق على كل منشوراتها و كأنه يعرف عنها ما لا أعرفه أنا.. كان يحاول جاهدا أن يوجه حبها لوجهة أخرى.. وجهة أسمى و أعلى مما هى تعانيه.. لم أدرك وقتها مراده.. استشعرت فيه شيئا من المثالية المتحفظة.. هو يدعوها إلى شيء.. يبدو لي من حوارهما أنها تفهمه.. جعلني في حيرة من أمري.. و تساءلت:

– هل هناك حب أقوى من حب العاشقين لبعضهما؟!..

هذا السؤال الذي طرحته على نفسي جعلني أقطع حوارهما المتبادل بسؤالي:

– هل هناك حب أقوى من حب الحبيب لحبيبه؟!..

و وجدت هذا الرجل يجيبني قائلا:

– نعم يا آسيا هناك حب أعلى و أسمى..

استغربت أنه ناداني آسيا هكذا.. دون حرج.. و كأنه يعرفني.. ارتحت له.. و سألته:

– و ما هو هذا الحب؟!..

أجابني بكلمتين:

– حب الوطن..

استغربت لإجابته.. و لم أتوقعها.. كنت أظنه سيخبرني عن حب من نوع آخر.. فالرومانسية التي كانا يتحدثان بها أوحت لي بأنهما يتحدثان عن مراحل عليا من الحب الأفلاطوني.. فلم يكن في حديثهما ما يشير إلى حب الوطن.. كان حوارهما يشبه صراع بين أن أعيش بالحب أو أموت دونه.. ظننت أنه يقويها.. يمنحها الأمل و الرجاء.. لتقوى بهما على مثل هذا الحب الضائع.. الحب الحائر على صفحتها..

دخلت إلى صفحته.. إلى صفحة هذا الرجل الذي يبدو في حلته المثالية.. وجدت كل منشوراته على صفحته تتحدث عن حبه لامرأة ما.. و عن عشقه بها.. و هيامه فيها.. حب أبعد من الخيال.. حب يمتلئ بالصور الجميلة للمحبوبة.. يحدثها فيه عن غد أجمل.. يثق هو في حديثه.. حتى أنه يعدها وعدا حرا لا يعرفه إلا الرجال الأحرار.. ابتسمت في نفسي لاعتزازه بنفسه.. لثقته في حبه لها.. لوعوده بالجميل الآتي من أجلها.. و في النهاية اكتشفت أن حبيبته ما هى إلا مصر..

تأثرت لمثل هذا الحب.. و تمنيت أن أطرح عليه هذا السؤال:

- هل حب مصر يغنيك عن حب النساء؟!..

ياه! .. لو كان الأمر صحيحا.. إذن.. ما أنبلك أيها الرجل! .. و ما أنبل حبك! .. و هل مصر تحتاج إلا رجلا مثلك؟! .. رجل يعرف كيف يحبها؟! .. كيف يكتفي بحبها عن أي حب آخر؟! .. كيف يتغني بها و كأنها الحبيبة؟! .. رجل صدق ما عاهد الله عليه..

هذا الرجل يشبه مالك.. فيه شيء منه.. كلما نظرت إلى صورته شعرت و كأني أنظر لمالك.. تقاطيع الوجه نفسها.. الملامح تقول بأن صلة قرابة تربط بينهما.. أم أن كل الرجال الشرفاء يشبهون بعضهم؟!..

***

بدأت أكتب خواطري على صفحتي.. و أعبر عن قيمي و اهتماماتي.. و لكن كان ينقصني شيئا.. و هو أن أحس أن هناك من يقرأ.. و الغريبة أني لاحظت شخصية تسجل إعجابها بما أكتبه.. و عندما دخلت إلى صفحته تعرفت إليه.. فكان شابا ممن يسكنون حينا.. طبعا عرفته من صورته.. و بصراحة راقني الأمر.. و منحني فرحة عذبة.. إذ عرفت أنه هناك من يقرأ ما أكتبه.. و أنه شخص يعرفني.. و استغربت أنه لم يرسل لي طلب صداقة.. و قلت في نفسي:

- ربما يظن أني سأرفض..

و دخلت إلى صفحته ثانية.. و سجلت إعجابي بصورته.. و ما هى إلا لحظات.. و أرسل لي طلب صداقة.. و انتظرت قليلا ثم قررت أن أقبله.. و بعدها بدقائق أرسل لي على الخاص رسالة إعجاب.. و لكني لم أرد عليه.. و اكتفيت بتبادل الإعجاب معه على المنشورات التي نضعها على الصفحة..

راسلني ثانية على الخاص.. و قال لي بنبرة فيها من السخرية شيئا:

– أمازلت كما أنت متبلدة الإحساس؟!..

لم أصدق ما قاله لي.. هل هو يراني هكذا متبلدة الإحساس؟! .. أنا التي تحمل بداخلها فيضا من المشاعر يتهمني بأني متبلدة الإحساس.. إنه الشاب نفسه الذي سألني ذات مرة:

– هل تبحثين عن شيء؟!..

عجزت أن أرد عليه.. فقد صدمتني جملته.. و شلني وقع تأثيرها علي.. و لكنه سرعان ما تدارك الأمر.. و أرسل لي رسالة أخرى يقول فيها:

– سامحيني يا آسيا.. و لكنك بعيدة.. بعيدة للغاية.. لم يا آسيا؟! .. لم؟!..

سؤال لم أستطع أن أجيب عنه.. حتى بيني و بين نفسي:

– لم أنا بعيدة؟!..

أرسل لي يخبرني:

– أتمنى ألا أكون أزعجتك .. سامحيني..

سامحته لما لمسته في رسائله من رقة.. و لكنني لم أرد عليه.. مازال هذا الحاجز الذي يقف بيني و بينهم قائما.. لم يزل بعد.. و لكني استبشرت خيرا طالما أني قبلتهم.. و استجبت لهم.. فهذا كفيل بأن يزيل الحاجز الذي بيننا تدريجيا..

و بعد فترة بسيطة بدأ بعض أفراد الحي يبعثون لي بطلبات صداقة.. و لا أدري لم شعوري بهم اختلف و قبلت طلباتهم؟!.. و أثارني وجود بعض الأشخاص الذين لم أتوقع أن يكون لهم علاقة بعالم النت.. و الحقيقة أني اكتشفت أني أنا التي تأخرت كثيرا في التعرف على عالم النت.. وجدت الأستاذ أنيس مدرس التاريخ في مدرستي.. يتبادل الإعجاب و الردود مع السيدة فيروز.. صاحبة محل الملابس الجاهزة في آخر الشارع.. أتذكر أنه كان دائما يمر من عندها.. و كانت هى تصطنع أي شيء.. لتقف على باب

المحل.. ليلتقيا الاثنان.. و يتبادلا التحية.. و كنت عندما أراهما.. يخفق قلبي بشدة.. و أرى فيهما شيئا جميلا.. و أشعر معهما أن الدنيا مازالت بخير.. لم يسبق لأحد منهما أن تزوج.. و يبدو أن الدنيا أخذتهما.. و نسيا نفسيهما.. و ربما هذا الأمر المشترك بينهما.. هو ما جعلهما يشعران بحنين إلى بعضهما.. لم تجمعهما الحياة خوفا من القيل و القال.. و جمعهما الفيس بوك.. سبحان الله!..

***

كنت أتوقع في نفسي طيلة الوقت أن يسجل عمي مالك إعجابه بكلماتي.. و لكنه للأسف لم يفعل.. و كعادته أصابني بخيبة أمل.. و كنت دائما ما أتساءل:

– يا ترى هل عرف شيئا عن صفحتي؟!..

لابد أن يكون الفيس قد اقترحني له كما اقترحه لي.. فلم يتعمد أن يتجاهلني؟! .. إنه يتجاهل كل أهل الحي.. لا يوجد أحد من أصدقائه.. إنه يصنع له عالما بعيدا عنا.. لا يريد لأحد منا أن يكون في عالمه.. لم كل هذا الجفاء ناحيتنا.. و الذي لا مبرر له على الإطلاق؟! .. صمت لحظة ثم قلت في نفسي:

– أولى أن توجهي هذا السؤال لنفسك.. فقد اخترت البعد.. و جعلت هناك مسافة بينك و بين أهل الحي.. و أخرجتهم تماما من عالمك..

و لكني تغيرت.. و بدأت أشعر بأن للحياة مذاقا آخرا.. و هو عنيد لا يتغير أبدا.. أو ربما أنه معنا فقط.. لن أعلق حياتي عليه.. سأصنع لنفسي عالما جديدا.. و لن أرفض أحدا.. فأنا أحتاج إليهم.. و إلى تعليقاتهم.. لقد منحوني روائع الإحساس.. فما أجمل أن تجد من يهتم لأمرك!..

و لا أدري لم انتابني إحساس بأن أستمع إلى أغنية على فين وخداني عينك؟!.. بعد أن كنت جافيتها طويلا.. و كنت أشعر بحزن دفين كلما مرت بخاطري.. و لكن في هذا الوقت.. كان لدي حنين غريب

لها.. و سمعتها.. و أخذت أرقص معها.. و أنا أشعر بسعادة حالمة.. و لم أدر كم من الوقت و أنا أرقص على أنغام الأغنية؟! .. و قررت أن أشاركها على صفحتي..

و بعد أن شاركتها وجدت تعليقا أذهلني على مقطع الأغنية.. وجدت أحدهم يكتب لي:

- أهى أنت؟!..

لم أفهم ما الذي يعنيه و لكنه شغلني.. شعرت و كأنه يرمي إلى شيء.. ما هو؟! .. لا أدري .. و لكني أحسه.. أحسه بعمق.. و تجاهلت الأمر.. لأني لا أريد أن أشغل نفسي بأحد.. و لا أريد لأحد أن يشغلني معه.. أو أن يأخذ مني فرحتي.. و وجدته يبعث لي بطلب صداقة.. فترددت و احترت لأمره.. بداخلي شيء يخبرني أنه يعرفني.. و يتعمد أن يلفت نظري.. قررت أن أنتظر.. و لا أقبل طلب صداقته.. و من يدري؟! .. ربما تذكرته.. فقد يكون أحد أصدقائي القدامى في الكلية..

***

ربما هو آسر.. ذلك الشاب العذب.. فكم كان متعلقا بي.. و كم قسوت عليه.. و لكن ما بيدي حيلة.. لم أتمكن من نسيانه.. نسيان جاسر..

كان آسر شابا حالما.. وجها سينمائيا خلابا.. كنت دائما ما أخبره بأنه يشبه صالح سليم.. و كان يروق له ذلك.. لأنه يعلم جيدا مدى حبي لصالح سليم.. خاصة في فيلمه الشموع السوداء.. و كان آسر يكتب قصصا رومانسية.. و كانت الفتيات تطلبن وداده.. و لكن طبيعته الرومانسية كانت تحتاج إلى فتاة رومانسية مثله.. و قال لي ذات مرة:

- إنه يعلم أني فتاته التي يبحث عنها.. و أنه لو فقدها لن يجدها ثانية.. و أن فتاة مثلي لا يمكن أن تعوض..

و كنت أنصت لكلماته بحنين يشبه الحنين الذي كنت أشعر به في وجودي مع جاسر.. و تمتلئ عيناي دموعا.. فيثيره أمري و يسألني:

– ما الذي يبكيك؟!..

فإذا بي أجش ببكاء طويل.. و لا أملك مع رقته معي إلا أن أحكي له حكايتي.. و أخبره عن ذلك الرجل الذي استحوذ على كياني.. و رحل و تركني أعاني حنيني و اشتياقي إليه..

و حاول أن يقنعني بأنه مجرد وهم يسيطر علي.. و ينبغي علي أن أتحرر منه.. إنها عقدة الحب الأول.. و أنه بإمكانه أن يمنحني حبا أجمل من حبه.. و حاولت أن أقتنع.. و دخلت في تجربة معه.. و جربت أن أبادله الحب.. و لكني وجدت فراغا عميقا فيما يقدمه لي.. أكثر ما كان يؤلف بيننا هو حبنا للقراءة و الكتابة.. و كنا عندما نجلس سويا نقرأ فقط.. أقرأ عليه ما أكتب.. و يقرأ علي ما يكتب.. كانت تعجبه كتاباتي كثيرا.. أثاره حزني فيها.. و سألني:

– لماذا كتاباتك حزينة؟!..

– لأن روحي حزينة..

– و لماذا روحك حزينة؟!..

– لا أعرف.. تركيبة طبيعتي..

– كلما تحدثت إليك أشعر و كأنك تحملين هما ما..

– أخاف كثيرا من الحياة..

– و ما الذي يخيفك منها؟!..

– لا أدري..

– ما حالة التوهان التي ألمسها فيك هذه يا آسيا؟!..

– صدقا لا أعرف..

– ربما هذا هو ما ينقصك.. أن تعرفي.. تحتاجين إلى أن تعرفي.. ربما تغيرت نظرتك..

– ربما..

***

رغم أنه كاتب لكنه لم يمنحني الشعور نفسه الذي كنت أحسه في وجودي مع جاسر.. و أيقنت أكثر أني لن أعوض حب جاسر.. و لن أجد شخصية تضاهي شخصيته.. اقتنعت تماما أنه الرجل الوحيد في هذا العالم.. و أنه فارس.. و أنه العاشق الذي تبتغيه أية امرأة.. و أني لن أجد مثله أبدا في الحياة..

و أخبرت آسر بكل هذا.. و أصبته بخيبة أمل.. و ترغرغت عيناه بالدموع و هو يودعني.. و يتمنى لي أن أجد الحب الذي أتمناه..

– آسر .. سامحني..

– أسامحك .. و لكن علام؟!..

– على كل هذا الحب الذي قدمته لي و قابلته بالجحود..

– لا عليك يا آسيا .. ليس ذنبك أو ذنبي.. إنها الحياة.. الحب فيها حب ضائع.. فما بالك بحب من طرف واحد ..

– أنت تستحق من هى أفضل مني؟!..

– و هل هى موجودة؟!..

– نعم..

– آسيا امضي في حياتك.. و لا تلتفتي للخلف.. و لكن قبل أن ترحلي أحب أن أخبرك بأمر..

– أي أمر؟!..

– لا امرأة إلا أنت..

نظرت إليه بذهول.. إنها جملة جاسر تجري على لسان آسر.. وكأن الحياة تذكرني بجاسر.. إنها لا تريد لي أن أنساه.. إن كنت قد ترددت في تركي لآسر.. فبعد أن أخبرني بهذه الجملة زال من نفسي أي تردد.. شعرت و كأن الجملة تنبئني بعودة جاسر ثانية.. و تركته و رحلت..

و بعد وقت ليس طويلا شعرت بالندم.. و عرفت أني لن أجد شخصا في مثل وفاء آسر.. و كان بإمكاني أن أستعيده.. فكنت عندما ألقاه صدفة.. أجد في عينيه مزيدا من الحوار الذي يخبئه لي.. و كنت أشعر بالغيرة كلما رأيته مع فتاة غيري.. و رغم ذلك لم أحاول أن أستعيده.. كانت الجملة تتردد في نفسي.. و بعدها هاجس يخبرني بأن جاسر سيعود.. إلى أن أخلدت نفسي إلى الراحة.. و استكانت في مخدعها.. و بدأ الشعور بالذنب تجاهه يتلاشي.. و أحسست في قرارة نفسي أنه ليس هو الحب الذي أنشده..

مازالت هناك رابطة تشدني إلى جاسر أجهلها.. مازال الحنين إليه يراودني.. لم أتمكن من نسيانه.. رغم أني جافيته.. و جافيت ذكراه.. و جافيت أغنيتنا المفضلة عمرا.. و لكني لم أجافي جملته مطلقا.. ظلت بين الحين و الآخر تتردد في نفسي.. و منحتني ثقة لا متناهية..

***

بحثت في غالبية الكتب التي تتحدث عن عقدة الحب الأول.. و قرأت معظم الروايات التي تناولت الحب الأول.. و لا أدري لم اعتبرته ذنبا علينا التوبة منه؟!.. و أصابني هذا الأمر بإحباط شديد.. هل أنا وقعت في ذنب عظيم يحتاج إلى الغفران؟! .. هل يعاقبني الله على جرم اسمه الحب الأول؟! .. هناك أشياء تحدث في حياتنا.. ليس لها تفسير منطقي.. يمكنه أن يقنعنا.. هل نأخذها على علتها هكذا دون أن ننزعج؟! .. و نسلم بها على أنها من جملة الأمر الواقع الذي يصيبنا.. هكذا نرتاح..

دائما الحب الأول مدان.. و لا أدري لم؟! .. ربما لأنه جمع بين قلبين بريئين وسط نفوس ضعيفة.. أو ربما لم يقدر الرجل العربي معاني الحب إلا في إطار الزواج فقط.. لذلك اعتبر أن كل ما يخرج عن هذا الاطار مجرد رغبة يطفئها بعلاقة عابرة.. أو فراغ عاطفي يحاول أن يسده.. و في مجتمعاتنا العربية دائما المرأة هى الضحية.. هى المدانة.. هى من عليها أن تتحمل الوزر وحدها.. في مثل هذا المنطق العربي.. لابد و أن يكون الحب الأول مجرد وهم.. خرافة لا مكان لها على الأرض..

***

غابت آسيا في تفكيرها أيام و ليال عن الفيس بوك.. مشغولة بقضية الحب الأول.. تعاني من صراع نفسي يشدها إلى الماضي.. تتقلب عليها المواجع.. و تئن من صخب الذكريات في نفسها.. تذكرت أشياء كانت تظن أنها نسيتها.. و لكن ذكراها مؤلمة جدا.. مؤلمة حد الاختناق.. حد الهروب منها.. و اللجوء إلى منفى اسمه النسيان المؤقت أو التناسي أو الهجران الجميل..

و بعد صراع مرهق عادت آسيا إلى صفحتها على الفيس بوك.. لتستشعر اشتياقه لها.. اشتياق ذاك الرجل الغامض الذي يشغلها معه.. و كأنه يتعمد ذلك.. و هى تتساءل:

- لم؟!..

***

و مازلت حائرة من أمره.. من أمر هذا الرجل الذي يداعبني باهداءاته:

- ترى ما الذي يشغله بي؟! .. أراقت له كلماتي؟! .. فمن أجل ذلك تعلق بي..

دخلت إلى صفحته.. لأتعرف إلى هذه الشخصية التي أثرتني بكلماتها.. فوجدت ما أبهرني.. إني أحب مثل هذه الشخصية.. الشخصية التي تمنحك شعورا جارفا بالقوة و السلطة.. و أنك ملكت الدنيا بما فيها.. و لكم أحب هذه الأشياء التي تهبني روائع الأحاسيس!.. و بعد أن تعرفت عليه و على اهتماماته.. أيقنت أنه هو الرجل الذي سيعيد لي مجدي الذي لطالما حلمت به.. و سيبني بداخلي

صرحا من الآمال الممكنة.. و معه ستستحيل حياتي إلى جنة الخلد.. فطنت إلى أنه الرجل الوحيد الذي سيتوجني ملكة بين النساء.. مثلما كان يفعل جاسر بأناقة أسلوبه في تعامله معي.. أستشعر أنه سيعيد لي عهد جاسر و أكثر.. و أخيرا سأتحرر من انطوائي.. و انغلاقي على نفسي.. و سأقابل هذه الذين يطلقون عليها الدنيا.. سألهو كصبية مدللة.. و أرقص رقصتي المفضلة على أنغام أغنية على فين وخداني عينيك التي هجرتها طويلا..

***

و قررت أن أقبل طلب صداقته.. و أنتظر البقية.. و أنا أعلم أنه سيرضيني.. و بعد قليل من قبولي لطلب صداقته.. و شعوري بلذة غريبة بأني انتصرت على عمي مالك.. وجدت في رسائلي رسالة لوردة حمراء.. فضحكت في نفسي.. و قلت:

– لقد بدأ..

و لم أرد عليه رسالته.. وضع لي على صفحتي مقطع من أغنية على فين وخداني عينيك.. و استغربت:

– كيف له أن يعرف أنها أغنيتي المفضلة؟!..

و وجدت تعليقات كثيرة من أصدقائي على الأغنية.. و شعرت بحرج شديد.. و تجاهلت المقطع و التعليقات.. لعله يفهم أن الأمر لم يرق لي.. و لا أدري لم لم يرق لي الأمر؟! .. و كنت أظن أنه سيسعدني معه.. إذن:

– لماذا تمردت؟!.. و أنا أحب مثل هذه الأشياء.. إنها تشعرني بأني امرأة مدللة.. و لكم أعشق كوني امرأة مدللة! .. إنه سر أنوثتي التي أعتز بها.. فما بالك تغضبين؟!..

لم يمض وقت طويل حتى شعرت بالقلق.. إنه لم يحاول معي ثانية:

– هل وصلته رسالتي و أدرك أني غضبت؟! .. و ما الذي يعنيني من أمره؟!..

لا يمكنني أن أتخلى عنه.. و أضيعه من يدي بحماقاتي.. ليس له ذنب في أن يحتمل سخافاتي.. إذن:

– كيف يمكنني أن أصلح الموقف؟!..

دخلت إلى صفحته فوجدت إحدى الحسناوات تهديه مقطعا من أغنية.. فشعرت بغيرة قاتلة.. و ظللت منتظرة لأرى رده على المقطع.. و مر وقت و لم يرد.. فشعرت في نفسي برضا.. و لكنه سرعان ما ذهب.. قلت ربما أنه غير موجود.. و عندما يدخل إلى صفحته سيرد عليها.. و يبادلها بمقطع آخر.. كيف لي أن أعرف أنه موجود على صفحته؟! .. فبادرني شعور بأن أظهر للجميع.. بعد أن كنت أدخل إلى صفحتي متخفية.. تجنبا لأي اختلاط أو تعارف ممل.. و قمت بتشغيل الدردشة.. و أصبحت ظاهرة للأصدقاء.. أحس خفقان قلبي.. أنظر في الدردشة.. لأرى أنه موجود عليها.. و هذا يعني أنه:

– ربما موجود على صفحته أو ربما غير موجود.. رباه!!..

– ما هذه الحيرة التي ألقي بنفسي فيها؟! .. ما الذي صنعته بنفسي؟! .. مالي أنا و مال هذه الأمور السخيفة..

و لكنه رجلي الذي ارتضيته بعد طول غياب.. بعد عمر من الحرمان.. إني رسمت لنا عالما آخرا.. لا يسعني أن أهدمه.. إني تعلقت به بشكل لا يقبل أي تراجع.. لا أنوي أن أتراجع أبدا..

و في عز حيرتي وجدت رنة من الدردشة.. و وجدته يتصل علي.. فارتبكت ارتباكا شديدا.. و لم أتمكن من فتح الاتصال بيننا.. بسبب خوف تملكني.. شعرت بالخجل الشديد.. و لم أتمالك نفسي لأرد عليه.. اختنق صوتي في حلقه.. و حاول الاتصال مجددا علي.. فضغطت على العلامة الحمراء.. و التي تنهي الاتصال بيننا.. و شعرت بضيق نفسي:

– لماذا يضعني في هذا الموقف؟! .. ألا يعلم أنه أصعب علي من نفسي؟! .. ما الذي غره بي؟!..

و أحسست غضبا يسري في أوصالي.. و فجأة أرسلت له برسالة أقول فيها:

– لا يحق لك أبدا أن تتصل بي على هذا النحو..

فأرسل لي برده قائلا:

– لقد اشتقت إليك كثيرا..

صعقت من كلماته.. يحدثني و كأنه يعرفني من زمان.. و شعرت بشيء يشدني إلى بعيد.. و انتابني خوف لم أعهده:

– أمعقول أن يكون هو؟! .. يا الله..

و احتجت إلى أن أرجع إلى صوره على الفيس.. لأنظر إليها مجددا.. و أتأمل ملامحه:

– كيف لم أنتبه؟! .. كيف خانني شعوري؟!..

إنه هو.. و لا يمكن أن يكون إلا هو.. بهذه الغمازة التي تقطن أسفل ذقنه.. و بهاتين العينين البنيتين الداكنتين.. و شعره الكستنائي.. إنه هو.. و لكنه تغير كثيرا.. فيه شيء مختلف.. لا أدري ما هو؟! .. و لكني أستشعره.. ربما زاده السن وقارا.. ربما هذه اللحية التي لم أعهده بها.. ربما..

هاجس يحدثني لأن أدخل إلى صفحته.. بداخلي شعور يسألني أن أتعرف إليه أكثر و أكثر.. و بالفعل كلما دخلت إلى صفحته.. أنتبه إلى أشياء لم أكن أنتبه إليها.. و أجده أكثر إثارة.. و أجذب في معان كثيرة.. كنت أظن أن مالك ينفرد بها..

إنهما فعلا يتشابهان في أشياء كثيرة.. ما كنت أنتبه إليها.. و أكثر ما يجمعهما لفتاتهما.. و نظرة عيناهما.. و الغمازة التي في ذقنهما..

وجدت له صورا في غاية الروعة.. شدتني إليه أكثر.. صوره و هو في مختلف أنحاء العالم:

– أرحالة هو؟! .. لست أدري من أمره شيئا.. و لكن بداخلي حاجة تنتمي إليه.. و بداخله حاجة تشده إلي.. و إلا ما الذي يجعله يتذكرني إلى الآن؟! .. و ما الذي يجعلني لا أسلاه إلى الآن؟! .. هناك رابطة ما تربطنا ببعضنا..

لقد تغير كثيرا هذا الشاب.. و أصبح أكثر وقارا.. لكم أحب هذا الوقار! .. لقد أحببته أكثر من ذي قبل.. و لا أدري لم أبتسم الآن؟! .. أشعر أن كل شيء في يبتسم.. حتى جوارحي تبتسم.. يااالله!! .. ما الذي يفعله في؟! .. لماذا كلما التقيتك أحتاج إلى أن أستمع إلى أغنية من أغاني زمان؟! .. و كأنك تأخذني إلى عالم من النشوة و السحر.. و كأني أسمع أم كلثوم تنشد في أذني: رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا.. أرغب بشدة في أن أستمع إلى هذه الأغنية.. و أرغب أكثر في أن أتشاركها معك.. و من أجل هذا سأشاركها على صفحتي.. لعلك تفهم و تشاركني و لو من بعيد.. و بعدها سأرقص و أرقص حتى يسأم الرقص مني..

***

– غير معقول!!..

لقد سجل إعجابه بأغنيتي.. أشكرك يارب أن نقلت له إحساسي.. و جعلته يشاركني إحساس الأغنية العذب الذي أتذوقه الآن.. و بين جنباتي ألف معنى و معنى له..

إنه يضع لي مقطع من الأغنية نفسها.. مقطع يا حياة قلبي يا أغلى من حياتي.. مازال على رومانسيته الحالمة.. سأبادله المقطع بمقطع.. فلماذا لا؟! .. أريد أن أنطلق معه.. سأضع له مقطع ابتديت دلوقت أحب عمري.. ابتديت دلوقت بس أخاف للعمر يجري..

***

و بدأت المنغصات تنغص علينا بعض أمورنا.. و هل تدع الحياة مثل هذا الحب دون أن تعصف به؟!.. أرسلت لي إيمان رسالة تسألني فيها عنه:

– من يكون هذا الرجل يا آسيا؟!..

أجبتها في برود:

– مجرد صديق.. يبدي إعجابه بي..

و أخبرتني بأمر جعلني أغار عليه.. قالت لي:

– لولا أن عمك مالك في حياتي ما فوت هذه الفرصة لأتعرف عليه..

و رغم غيرتي إلا أني ابتسمت في نفسي.. و أحسست بأنها تلفت نظري له.. و لكني أيقنت أنه كما فطنت إيمان لما بيننا.. فمن المؤكد أن بقية الأصدقاء سينتبهون للأمر.. و لم أكد أنتهي من تفكيري حتى وجدت تعليقا على المقاطع التي تبادلناها من إحدى فتيات الحى تقول فيه:

– ذوقك راقي للغاية.. ينم عن شخصية سيد حالم..

و مما زاد في غيرتي أنه سجل إعجابه بتعليقها.. و هو ما أغضبني.. و قررت أن أزيل المقطع تماما و ما عليه من تعليقات.. لأرضي نفسي.. و بالفعل أزلت المقطع.. و ابتسمت.. و شعرت براحة.. و إذا بي أجد هذه الفتاة ترسل لي على الخاص و تقول:

– لماذا حذفت المقطع؟!..

و لكني لم أرد عليها.. انتظرت قليلا ثم أرسلت لي رسالة تقول لي فيها:

– يبدو أنك غرت..

و تضايقت و شعرت أنها تضحك في نفسها مني.. فأثارني الموقف.. و اغتظت من نفسي.. لأني أعطيتها الفرصة لتظن أني غرت منها:

– أيتها الحمقاء.. كيف لك أن تفهمي أن غيرتي عليه و ليست منك؟!..

لم ألق لها بالا أكثر من ذلك.. و طردتها من تفكيري.. و يكفيني أني فوت عليها فرصة أن تشغله من صفحتي.. فلتذهب بعيدا.. و بعدها لتفعل ما تشاء.. و تجاهلي لرسائلها أرضى غروري.. إن ما يهمني الآن هو.. ربما يغضبه الأمر.. قد أكون أحرجته.. أخشى أن أبعده عني بحماقاتي.. و فيما أنا مستغرقة في تفكيري.. إذا به يرسل لي مقطع أغنية: اللي شوفته قبل ما تشوفك عنيا عمر ضايع يحسبوه ازاي عليا.. إنت عمري..

و فرحت فرحة خالجت نبضات قلبي.. و قررت في هذه المرة أن أتواصل معه.. ففكرة أن أتجاهله لم تعد مقبولة لدي ثانية.. و أرسلت له أسأله:

– من أنت؟ .. و من تكون؟!..

و بدأ بيننا حوار من الحنين.. الحنين نفسه الذي كنت أحسه في وجوده..

– ألم تتذكريني بعد؟!..

– بلى تذكرت .. و لكني أريد أن أتأكد أنك هو..

– و ما الذي يجعلك تتذكرين؟! .. ارجعي إلى الوراء.. و استعيدي ملامحي.. ستجدين أنها الملامح نفسها..

– استعدتها .. و عرفت أنه أنت .. و لكن .. ملامحك نضجت..

– لأني كبرت..

– ازددت جاذبية..

– يقولون لي ذلك..

– هل تذكر أغنيتنا المفضلة؟!..

– بالطبع أذكرها.. هل عندك شك؟!..

أحتاج أن أسمع كلماتها منك..

– صدقا..

– نعم.. فبداخلي حنين إليك.. إليها.. إلينا..

– ما رأيك أن تفتحي الكاميرا؟!..

– ماذا؟! .. لا .. لا يمكنني..

– رجاء.. اشتاقت عيناي لملامحك..

– قد أكون تغيرت مثل ما أنت تغيرت..

– لا يهمني.. طالما أنها الروح نفسها..

– أشعر بالخجل منك..

– لا تخجلي يا حبيبتي.. سأتصل عليك..

فتحت الكاميرا.. لأستعيده و يستعيدني.. لنستعيد ذلك الحنين الذي تقاسمناه.. لأستعيد معه عمري الضائع.. و نستعيد معا أغنيتنا المفضلة..

***

يجلس على رأس المائدة الرجل الأول في التنظيم.. و يجلس إلى يمينه الرجل الثاني جاسر العربي.. بينما يجلس بقية أفراد التنظيم على جانبي مائدة الاجتماع.. يرحل جاسر بفكره حيث يسكن هناك قلبه عند آسيا..

يااه يا آسيا لكم اشتقت إليك! .. بداخلي حنين إليك.. الحنين نفسه الذي أتقنته في وجودك.. و لم أبرأ منه.. أنت يا حياتي ماذا فعلت في لتقلبي لي كياني؟! .. أنا الذي كنت أنوي الخيانة و أكيد لك.. يتحول حقدي إلى أعذب إحساس عرفته في حياتي.. كيف جعلتني أحبك كل هذا الحب؟! .. و أغير عقيدتي لأجلك أنت.. نعم لأجلك أنت..

أيتها الحالمة في دنياي.. يا سيدة نساء الدنيا و من فيها.. أشهد أنه لا امرأة إلا أنت.. هو قلبي و أنا أعرفه.. لن يرضى بالخضوع إلا على أعتابك.. فكم عرفت من النساء.. و ما تذوقت اختلافا إلا معك.. أطفلة أنت أم صبية حالمة أم فتاة مشاكسة أم امرأة متمردة عرفت كيف تستوطنني؟! .. فمنذ أن عرفتك و أدركت قيمة الوطن.. و أنه لا وطن إلا بك.. لم يكن لي يوما وطن.. فأنا شريد في البلاد.. أبحث عن هويتي.. ضائع بين المدن الكبيرة و العوالم الغريبة.. لم أشعر بالأمان إلا بين يديك.. و كأنك أمي أو شيء من دمي.. لا أدري ما الذي فعلته في غير أني:

– أشهد أن لا امرأة إلا أنت.. متى يمكنني أن أقولها لك؟! .. كم أتوق أن أقبل يدك! .. و أشهد بأنك المرأة الوحيدة التي علمتني معنى الوطن..

سيف: للأسف يا جاسر.. أخشى أن نكون قد فقدناك.. ما أنت بجاسر الذي عرفته.. فما الذي جرى لك يا رجل؟! .. ما الذي غيرك هكذا؟!..

جاسر: يتنهد..

مهند: كنت قد طلبت اجتماعنا لأمر مهم.. فهات ما لديك.. ننتظرك..

راغب: لا يمكنه أن يصارحنا.. هيا قلها لقد تخليت عنا.. تخليت عن التنظيم.. تبا لك يا رجل!..

جاسر: ها أنا أعلن انسحابي..

منذر: كيف تجرؤ؟!..

جاسر: أريد أن أعيش حياتي على راحتي.. دون أن يؤرقني شيئا.. لقد سأمت اللعبة..

عامر: بعد أن حققنا مجدنا.. تسميها لعبة.. تعلم أنك لو تركت التنظيم.. سينهار جزء كبير منه.. و لن نستعيده إلا بوجودك..

جاسر: لقد اتخذت قراري و لن أتراجع.. أنا خارج اللعبة.. و يكفينا ما مضى.. لعل الله يسامحنا..

سيف: و لكنك تعرف قوانين اللعبة.. الموت للخائن..

جاسر: لست بخائن.. و لكني مللت اللعب معكم.. مللت هذه الحياة التي تدمي قلبي.. أريد أن أرتاح..

سيف: و لكنا لا نوافق على خروجك.. و اللعبة لم تنته بعد.. و عليك جزء كبير منها.. أنى لك أن تتخلى عنه.. إنها صفقة يا سيدي عقدناها.. و لا يصح أن تنفلت منها هكذا..

جاسر يقف غاضبا.. و يخرج من الاجتماع.. و قبل أن يغلق الباب خلفه يقول في حدة:

- لقد انتهت اللعبة..

ثم يغلق باب المكتب بعنف.. و يمضي في طريقه..

سيف: بالنسبة لك قد تكون انتهت أما بالنسبة لنا فلم تنته بعد..

منذر: ما العمل؟!..

سيف: إما أن تقتلوه فهو قانون اللعبة.. أو تقتلوا الفتاة فيعود إلينا..

مهند: أخشى انتقامه..

راغب: لا تخشى شيئا.. فلعبتنا لا تعرف الخوف..

عامر: حب.. خوف.. منذ أن دخلت هذه المعاني إلى لعبتنا.. و قد تراجعنا كثيرا.. كنا لا نفقه هذه العواطف فنجحنا.. وا أسفي!..

سيف: اقتلوا الفتاة و لننظر ماذا يفعل.. انتهى الأمر.. و لنفض هذه المهزلة قبل أن أسحقكم جميعا..

***

– ما الذي دهاك يا جاسر؟! .. ما كل هذا الحزن الذي يثقلك؟! .. ما عرفت طعم الآه إلا عندما أحببتها.. الشيء الوحيد الذي أستغربه هذا التحول الكبير الذي اعتراني.. كانت أهدافي محددة.. ثم فجأة و بلا مبرر معقول حدت عنها.. إلا إذا صح ما يقولونه:

– إن الحب يصنع المعجزات..

– لماذا أشتاق إليك الآن أكثر؟! .. لماذا كلما بعدت عنك أجدني أحتاج إلى أن أقترب منك أكثر؟! .. بداخلي تساؤلات كثيرة.. لن أجد لها أجوبة إلا عندك.. فأنت تملكين الشيء الذي ينقصني و لا أدركه.. ربما لأنك الوحيدة التي جعلتني أعيش معنى الوطن..

سأتصل عليك.. أحتاج أن أسمع صوتك.. و أملأ نفسي منه.. معك سأغير لعبتي.. سأعد لعبة من أجلي و أجلك.. أعلم يا حبيبتي أني قد أدخلتك في لعبة قذرة.. و لكني أقسم لك أني سأحميك بكل كياني.. و أني سأخرجك منها بريئة كما عهدتك.. و أعدك ألا تندمين.. بل معي ستقولين:

– هل من مزيد؟!..

كنت أحيا حياتي بلا هدف.. أطارد شيئا لا أعرفه.. و ألهث وراء حاجة تنقصني.. و منذ أن وقع حبك في قلبي.. و تغيرت كل معاني الحياة التي أحياها.. أصبحت الصورة أكثر وضوحا الآن.. و انجلت غشاوة حمقاء من على عيني.. حتى أخلاقي تهذبت.. و مواقفي من الحياة.. ظننت أن الحياة ألد أعدائي.. و علي أن أكون ندا لها.. و أدخلت نفسي في صراع معها.. عشت في منفى.. و اعتزلت

الأحياء.. إلى أن أتيت أنت.. و جعلتني أقبل على الحياة.. أرى الوجه الآخر لها.. تصالحت معها من أجلك.. و أحببت أقدارها التي حملتني إليك.. و جمعتني بك على غير ميعاد..

***

جاسر يتصل على آسيا بمزيد من الحنين.. يحتاج إلى أن يسمع صوتها.. و أن تمتلئ رئتاه بنربتها الطنانة.. إنه صوتها.. بالنسبة له أضحى حكاية حياة..

آسيا: جاسر .. أين أنت؟!..

جاسر: معذرة .. لقد انشغلت قليلا..

آسيا: و بم انشغلت عني؟!..

جاسر: انشغلت بك..

آسيا: غير معقول .. كيف؟!..

جاسر: لا تشغلي بالك.. كل ما أريده منك أن تثقي في أني كلما بعدت عنك كلما كنت قريبة..

آسيا: أخشى أن أفقدك ثانية..

جاسر: لا لا لا تخافي.. هذه المرة سأظل معك..

آسيا: هل لي أن أسألك أمرا؟!..

جاسر: أرجو أن تؤجليه لحين أن نلتقي.. و سأخبرك بكل شيء..

آسيا: نلتقي!!..

جاسر: نعم .. أريد بشدة أن أقابلك..

آسيا: هل ستأتي؟!..

جاسر: لا.. بل أنت الذي ستأتين..

آسيا: آتي .. كيف؟!..

جاسر: سنجهز للأمر .. المهم .. مستعدة..

آسيا: لا أدري .. خائفة..

جاسر: أنسيت حلمنا؟!..

آسيا: لم أنس.. و لكن يشق الأمر علي..

جاسر: لا تقلقي.. طالما أنك معي لا تخشي شيئا..

آسيا: و لكن..

جاسر: ليس هناك لكن .. هناك فقط جاسر و آسيا .. و انسي أي شيء آخر.. هل تثقين في؟!..

آسيا: بالطبع..

جاسر: إذن .. فدعينا نخوض التجربة .. ها ما رأيك؟!..

آسيا: معك للنهاية..

جاسر: هكذا هي آسيا حبيبتي المدللة.. أتركك الآن يا حبيبتي على لقاء آخر..

آسيا: إلى اللقاء..

***

نعم أتذكر حلمنا يا جاسر.. الحلم الذي لم يفارقني منذ رحيلك.. كم تمنيت أن تعود لتحققه لي.. كنت دائما في كل لقاء أحدثك عنه.. و أنت تبتسم لي بفرحة.. تداعب نبضات قلبي.. لم أجد غيرك ينصت لي باهتمام.. و كأني بالنسبة لك قضية حياتك.. حكيت لك عن رغبة ما في صدري تسألني الرحيل.. و سألتني عندما أخبرتك:

– إلى أين يا آسيا؟!..

أخبرتك و قلبي زاهد في هذه الحياة:

– إلى دنيا غير الدنيا.. إلى حياة أخرى لا يعرفني فيها أحد..

و عندما وجد الدموع بدأت تتسلل خلسة إلى عيني سألني مداعبا:

– أي بلد تنشدين؟!..

قلت له بابتسامة مخنوقة:

– لندن؟!..

و في استغراب سألني:

– و لماذا لندن؟!..

سرحت قليلا ثم قلت له:

– لأرى المكان الذي كانت تعيش فيه الأميرة ديانا.. كنت أحبها كثيرا.. و أتابع أخبارها.. و صدمت على مصيرها المؤلم.. تأثرت لموتها.. لماذا تخلصوا منها؟! .. لماذا قتلوا مثل هذا الحب؟! .. لماذا يقتلون كل شيء جميل في هذه الدنيا؟!..

– السياسة يا آسيا .. لعبة الأقذار..

قالها و هو ينظر باشمئزاز إلى شيء يراه و لا أراه.. قلت له باستغراب:

– السياسة؟!..

– نعم .. السياسة القذرة.. التي من شأنها أن تسحق أي شيء بضمير بارد..

– حتى الحب..

– السياسة لا تعرف حبا.. ليس لديها قلب.. المصلحة الشخصية ثم لا شيء..

– أمعقول هذا؟!..

– و أكثر مما تتخيلين..

– و لكني مازلت أرغب في أن أسافر إلى لندن.. و أشرب الشاي الإنجليزي.. و أتذوق البرود الإنجليز.. و أمشي تحت الثلج الإنجليزي..

سألني:

– أتصدقينني يا آسيا؟!..

– نعم .. أصدقك..

– في يوم ما .. سأحقق لك حلمك .. و ستسافرين لندن.. و إذا رغبت يمكننا أن نقيم هناك..

شعرت بفرحة تخالج قلبي و قلت له:

– صحيح.. يااااه.. لكم أتوق لذلك! .. متى يا ربي متى؟!..

و ظللت ليلتها أحلم باليوم الذي أسافر فيه إلى لندن مع جاسر.. و رغم فرحتي إلا أن غصة ضغطت على صدري..

***

هاجس يطن في أذن جاسر.. و يحدثه بأن يعيد صياغة اللعبة.. لتكون في صالحه:

– علي أن أفعل أمرا مهما قبل أن تأتي آسيا إلى هنا.. سأتصل عليهم.. و أوهمهم أني تراجعت عن قراري.. و أن لدي خطة أخرى سترضيهم و ترضيني.. و سيقتنعون.. لابد لهم أن يقتنعوا حتى لا أخسر آسيا.. لن أدخلها في لعبة حقيرة مثل هذه.. لن أجعلها تدفع ثمن حبها لي غاليا.. و لن أجعل منها خائنة لوطنها.. لا يمكن أن أضعها في هذا الموقف.. و تطرد من بلدها بسببي.. لتحيا مثلي بلا وطن.. لا و الله.. لن يحدث لها هذا.. و لن تمر بما مررت به من مرارة و حسرة أني خسرت وطني.. لا تخافي يا آسيا .. ستظلين آسيا..

جاسر: يوسف..

يوسف: جاسر..

جاسر: لقد تراجعت..

يوسف: تراجعت .. كيف؟!..

جاسر: غيرت موقفي .. ألا يرضيك؟!..

يوسف: يرضيني .. و لكني أشك..

جاسر: لا يهمني أن تشك أو لا .. المهم أني غيرت خطتي..

يوسف: كيف؟!..

جاسر: القاني في فندقي .. و سأشرح لك الأمر..

يوسف: أشتم رائحة خيانة..

جاسر: لن أخونك .. كل ما في الأمر أني وجدت لي مخرجا..

يوسف: كيف؟!..

جاسر: عندما ألقاك سأشرح لك..

يوسف: إذن .. نلتقي عند الثانية عشر في منتصف الليل..

جاسر: أنتظرك..

يوسف: و لا تنسى ذاك النبيذ الذي سبق و أن أحضرته لنا معك المرة السابقة..

جاسر: هل أعجبك مذاقه؟!..

يوسف: و هل يصنع جاسر في مصانعه التي يمتلكها غير كل ما هو مميز؟!..

جاسر: هذا هو سر نجاحي.. لا أهتم بالعائد قدر ما أهتم بالمنتج..

يوسف: و لكنك رغم ذلك تكسب الكثير.. و تجني أموالا طائلة..

جاسر: لا يعنيني.. المهم أن يكون المنتج بالجودة التي تجعله يليق باسمي..

يوسف: و هذا النبيذ؟!..

جاسر: هذا خاص بي.. لم أطرحه في السوق بعد..

يوسف: و لم أهديتنا إياه طالما أنه خاص بك؟!..

جاسر: لأنه الصنف الوحيد لدي الذي يليق بالمناسبة..

يوسف: أها .. لقد فهمت..

جاسر: أشك..

***

يعاود جاسر اتصاله بآسيا.. إنه يحتاجها بشدة.. يحتاج إلى أن يعيش معها عمره الآتي.. و لقد غير قوانين اللعبة.. لتبقى آسيا رغم أنف كل حاقد هى آسيا..

جاسر: نعم آسيا .. اسمعي ما سأخبرك به .. و عليك أن تنفذيه جيدا..

آسيا: معك..

جاسر: ستقولين لأهلك التالي:

– إن شركة عطور كبيرة ستفتح فرعا لها في القاهرة.. و أنك تواصلت معها عبر النت لتكوني مديرة الشركة في مصر.. و أنهم وافقوا عليك.. شرط أن تقبلي دعوتهم للسفر إلى لندن.. لتتعرفي عليهم.. و على العمل أكثر.. و أن كل شيء سيكون على حسابهم.. و أنك لن تتكلفي شيئا..

آسيا: ماذا؟!..

جاسر: حاولي أن تقنعيهم بالأمر.. و أنها فرصة لن تعوض..

آسيا: الأمر ليس سهلا كما تظن..

جاسر: آسيا .. هذه فرصتنا .. لا تفوتيها..

آسيا: هل تمهلني قليلا لأرتب للأمر؟!..

جاسر: نعم .. خذي وقتك..

***

أي موقف هذا الذي وضعتني فيه يا جاسر؟! .. كيف أخبرهم بالأمر؟! .. محال أن يسمحا لي بفراقهما.. و لكنه حلمي.. كيف أتخلى عنه؟! .. لقد أخبرته مرارا بأني أهوى السفر.. و أهوى

الانطلق.. إني أنشد حريتي.. أريد أن أعيش حياتي على الطريقة التي تروقني.. أريد أن أصنع غدي كما أشتهي.. لا أن يضيع عمري بين هذه الجدران.. سأتحرر من كل ما يقيدني معه.. حتى لو كان عمي مالك..

علي أن أرتب للأمر جيدا.. ينبغي أن أتصل على إيمان.. سأشركها في لعبتي.. سأتصل عليها لتأتي.. و أحدثها في الأمر..

آسيا: إيمان أحتاجك في أمر ضروري..

إيمان: خير إن شاء الله..

آسيا: عندما تأتين سأحدثك في الأمر.. رجاء لا تتأخري..

إيمان: لن أتأخر .. انتظريني..

لابد و أن أقنعها بالأمر.. لابد لها أن تقتنع.. أتمنى أن تفهميني يا إيمان.. رجاء لا تخذليني.. سأزج بعمي مالك في الأمر.. الشيء الوحيد الذي سيقنعها أن تغامر معي.. سأخبرها بأنه يحب الفتاة المغامرة .. الفتاة الغير عادية.. و أنها بسفرها معي ستلفت نظره إليها.. و حتما سيروق لها الأمر.. مجرد أن تعرف أنها ستشغل باله.. هذا سيجعلها تهتم للأمر.. و تفكر فيه على نحو جدي..

***

تأتي إيمان إلى آسيا في لهفة المشتاق إلى سماع الخبر.. و قد أخبرها حدسها بأنه خبر يخص مالك.. النبرة التي حدثتها بها آسيا دلتها على ذلك..

– أمعقول يارب أنه أخيرا فكر في؟!..

ربما علم أن كل خواطري التي أكتبها على صفحتي على الفيس بوك هى من أجله.. ربما تحرك قلبه ناحيتي.. إنه يعلم أني أنتمي إليه بكل جوارحي.. و رغم ذلك يصر على تجاهلي.. إني منذ أن عرفته..

و أنا أخلص له بكل كياني.. و أعيش بشعوري فيه.. إنه لن يجد امرأة تحبه مثلي.. فكيف له ألا يقدر مثل هذا الحب الذي أحمله له بين جنبي؟! .. سامحك الله يا آسيا.. سامحك الله يا مالك.. لا يجرؤ قلبي أن يدعو عليكما.. و لكني أشعر حسرة تملأني..

***

دخلت إيمان على آسيا.. فوجدتها حائرة من أمرها.. تفكر بعمق.. عيناها شاردتان إلى بعيد.. تبدو و كأنها على وشك اتخاذ قرار مصيري.. ارتجفت له إيمان بمجرد أن نظرت لها آسيا.. وركزت نظرتها طويلا.. لتلتقي العينان بتحد غريب..

تحركت آسيا ناحية إيمان.. و استقبلتها في لهفة.. و قالت لها بصوتها المبحوح:

– إيمان.. أحمد الله أنك أتيت..

إيمان في اضطراب:

– ما الذي دهاك آسيا؟! .. أخبريني.. هل للأمر علاقة بمالك؟!..

– أنت ليس عندك غير مالك؟!..

تنظر إليها بلوم و عتاب شديدين.. تبتسم لها آسيا في كثير من المكر ثم تقول لها:

– ما أحكيه لك ربما يقربك من مالك.. أها.. ما رأيك؟!..

– آسيا.. أتدرين؟!.. أول مرة أكتشف أنك شبه عمك كثيرا.. تعبيرات وجهك.. نظرة عينيك..

– أرجوك.. الأمر خطير للغاية.. يجب أن تركزي معي..

– ما بك.. رجاء أخبريني.. إنك تقلقينني بأسلوبك هذا.. بالله عليك ما الأمر؟!..

– سأقول لك.. و لكن عديني.. يبقى الأمر سرا بيننا سواء قبلت أو رفضت..

– أعدك بذلك..

– إيمان.. أتذكرين يوم أن قلت لي بأني لن أقدر موقفك تجاه عمي مالك إلا عندما أجرب الحب الحقيقي؟!..

– نعم أذكر..

– أستطيع أن أقول لك بأني وقعت في الحب..

– ذلك الرجل!!..

– نعم إنه هو..

– كيف؟! .. بهذه السرعة.. أمجنونة أنت؟!..

– أعرفه من زمان.. و أنت أيضا تعرفينه..

– أنا.. أعرفه.. لا أفهم..

– أتذكرين ذلك الشاب العربي الذي ارتبطت به فترة صباي؟!..

– لا يمكن.. غير معقول.. متأكدة..

– نعم.. إنه هو.. أقسم لك أنه هو.. لقد عاد.. مازال يتذكرني.. و أكثر من ذلك.. إنه يحبني حبا جما..

– و أنت؟!..

– أحبه.. و لا أحب سواه.. أرجوك إيمان.. أنا أحبه.. فلا تخذليني..

– أخذلك.. و ما شأني.. إنه قرارك..

– أحتاجك معي..

– أين؟!.. رجاء وضحي أكثر..

– سوف أسافر أنا و أنت..

– نسافر! .. إلى أين؟! .. هل ستقابلينه في مكان ما؟!..

– هو كذلك..

– أين؟!..

– لندن!!!...

– ماذا؟! .. إنك تهذين.. أنت على غير طبيعتك..

– إيمان .. رجاء .. اهدأي قليلا و افهميني..

– أفهم ماذا؟! .. هيا أخبريني لم لا يأت هو إليك؟!..

– قال إنه لا يستطيع..

– و ما السبب؟!..

– لا أدري.. أخبرني أني عندما أذهب إليه.. سيخبرني بكل شيء..

– كل شيء!!..

– نعم.. و أنا أثق به..

– هناك شيء لا يريحني..

– بالله عليك.. لا تبالغي..

– أخشي أنه يستدرجك لأمر..

– يااااه عليك! .. دائما نخاف و نخاف و نخاف.. كوني جريئة.. بالله عليك لا تخذليني..

– و ما علاقة مالك بالموضوع؟!..

– يااالله عليك! .. ألا تعلمين مالك حتى الآن؟!..

– ماذا تقصدين؟! .. رجاء وضحي..

– يا إيمان.. إن مالك يميل إلى المرأة المختلفة.. كوني مختلفة لكي يراك..

– تسرح إيمان بعيدا.. حيث يسكن مالك في هذه المنطقة الكامنة في أعماقها.. ثم تعود إلى آسيا.. و تسألها:

– هل دبرت الأمر؟!..

تضحك لها آسيا.. و تقبلها.. و تحتضنها برفق.. ثم تقول لها:

– لا تقلقي من شيء..

***

خرجت إيمان من عند آسيا حائرة.. لقد وعدت آسيا ألا تخبر أحدا.. و لكن .. الأمر يفوق الالتزام بالوعد.. جاسر في نظرها عدو.. عدو لدود.. ليس لها و لكن لبلدها.. أتحطم قلبا أم تحطم بلدا؟! .. لابد و أن تخبر أكمل.. لابد و أن تخبر مالك.. و عندما تعلم آسيا لن تلومها.. لأن القضية أكبر منهما.. هى قضية وطن..

اتصلت إيمان على أكمل.. و أخبرته بعودة جاسر.. فطلب منها أن تأتي إلى مكتبه.. ليعرف أكثر عن الأمر.. ذهبت آسيا إلى مكتب أكمل في مبنى المخابرات المصرية.. و حكت له ما دار بينها و بين

آسيا.. طلب أكمل من مالك الحضور إلى مكتبه لأمر عاجل.. استشعر مالك و هو في سيارته أن كارثة ما ستقع قريبا.. فأسرع إلى مكتب أكمل..

و عندما دخل مالك على أكمل مكتبه.. و وجد عنده إيمان.. أدرك أن الأمر يتعلق بآسيا.. فنظر إليهما نظرة ذات معنى.. تساؤل قلق في عينيه لأن يعرف.. فأجابه أكمل:

– لقد عاد..

– لا يمكن..

– هذه هى الحقيقة .. و علينا أن نتعامل مع الأمر بحكمة..

– عاد .. إنه مصر إذن..

جلس الثلاثة إلى الطاولة ليبحثوا الأمر.. قصت إيمان على مالك ما دار من حوار بينها و بين آسيا.. شعر بوخزة في قلبه.. تجلت في نظرة عينيه.. يكاد لا يصدق ما يسمعه.. تألم كثيرا عندما علم برغبة آسيا في السفر.. و همس في نفسه:

– لماذا يا آسيا لماذا؟!..

لاحظت إيمان الحيرة و الحسرة في عيني مالك.. فطمئنته.. و أخبرته بصوت يملؤه الحزن:

– لا تخف .. لن أتركها.. سأسافرمعها.. و لن أتخلى عنها..

اتجه إليها مالك بلهفة تطل من عينيه.. و قال لها في كثير من الخوف:

– أخشى ألا تعود..

– لا تسبق الأحداث..

– لماذا يصر هذا الرجل على أخذها مني .. لماذا؟!..

– لأنه يحبها يا جاسر .. يحبها حبا عظيما..

– حبا عظيما!!..

– نعم .. و إلا لم عاد إليها؟! ..كان من الممكن أن ينساها و يبحث عن غيرها..

– و هى؟!..

– لا أدري.. يبدو أنها متعلقة به للغاية.. و بما يرسمه لها من أحلام..

– أحلام أم أوهام؟!..

– مالك .. إيمان .. انتبها إلي جيدا.. لقد واتتنا فرصة.. لا يمكننا أن نضيعها..

– هل سنترك له آسيا؟!..

– لم أقل هذا.. و لكننا جميعا سنخوض التجربة.. و أنا أستشعر خيرا كبيرا سيأتينا من وراء الأمر..

– كيف؟! .. هل توضح الأمر أكثر؟!..

– ستذهب آسيا إلى جاسر.. و سننتظر البقية..

– هل سنترك الأمر للظروف؟! .. لا أفهم..

– إيمان سترافق آسيا كظلها.. و ستخبرنا بالتفاصيل..

– أخشى أن تغضب مني و أخسرها..

– أنا على يقين أن آسيا تنتمي إلينا.. و هى تفهم ذلك جيدا.. و لن تتخلى عنا مهما غضبت.. ستهدأ و تقدر.. و تعود إلى حيث تنتمي..

– و إن لم تعد..

– ستعود يا مالك ستعود .. أنا متأكد من كلامي هذا .. و الأيام بيننا .. ستثبت لك صدق ما أخمنه..

– أخاف أن يلحقها ضرر بشكل أو بآخر..

– كلنا نخاف عليها.. و لا نملك إلا أن نبتهل إلى الله أن ينجيها..

– و سنجلس هكذا مكتوفي الأيدي..

– ليس لدينا حل آخر..

– لا يمكنني أن أفعل هذا بها..

– شئت أم أبيت لقد اختارت آسيا الرحيل..

– سأمنعها..

– لو تدخلت على هذا النحو.. سيتأزم الموقف أكثر.. ثق بي..

– إذن .. ماذا علي أن أفعل في مثل هذا الموقف؟!..

– الخطة كالتالي:

سنترك آسيا تذهب إلى جاسر و معها إيمان.. جاسر سيخبر آسيا بالحقيقة.. و عندها ستصدم آسيا صدمة عنيفة.. سوف تتخبط وقتا و لكن ليس طويلا.. ستراجع نفسها.. ستوازن بين هويتها و بين جاسر.. و سترجح هويتها.. و تختار أن تعود.. و بما أن جاسر يحبها.. فسيحاول أن يكفر عن ذنبه تجاهها.. و لن يجد طريقة غير أن يتصالح معنا لنقبله بيننا.. و لكي يتحقق له ذلك.. سيحاول أن يرضينا بأي شكل ممكن.. و عندها سيضع المخطط كله على طاولتنا.. لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يرضينا.. و بذلك نتفادى خطرا عظيما.. يعلم الله وحده كيف كنا سنتفاداه لولا معجزة الحب التي ربطت جاسر بآسيا..

– و لكن ستكون آسيا هى الثمن..

– هل هذا هو ثمن الحرية؟!..

– لكي نحقق حريتنا علينا أن نجود بكل ما هو غال و ثمين.. و آسيا منا.. و عليها أن تضحي مثلنا.. و هذا دورها.. هذه لعبة القدر يا مالك.. و علينا أن نمتثل لها.. و لكني أعلم أن آسيا بخير.. و أنها في يد أمينة..

– كيف تقول هذا و أنت تعرفه جيدا؟!..

– لقد تتبعت جاسر على فترات كلما كشفت عن شخصيته على الفيس.. و وجدت مدى الاختلاف الذي ألم به بعد ارتباطه بآسيا.. و كيف عانى في بعده عنها؟! .. و كم يتمنى أن يعود إليها بأي ثمن.. و لا تنسى أنه لا يلعب إلا لعبا شريفا.. فلا يمكن لرجل مثله أن يبني مجده على كرامة امرأة.. إن مثل هذه الأشياء كفيلة بأن تدمره نفسيا.. لن يضر آسيا.. كل ما سيفعله أنه سوف يخيرها بين البقاء أو العودة.. و يأتي دور آسيا في تحديد مصيرها..

– أليس من الأولى أن نخبرها؟!..

– لو أخبرناها لاختلت موازين اللعبة.. لا تخبري آسيا بشيء.. دعيها تتخذ قرارها بنفسها .. فقط كوني بجوارها..

– و ماذا لو؟!..

– حتى لو اختارت البقاء بجانبه فلن ألومها.. لقد منحها الكثير.. و ربما تحتاج أن ترد إليه الجميل.. و لن أعتبر هذا خيانة منها .. من حقها أن تختار حياتها.. و وجودها بجانبه لن يغير من الأمر شيئا.. سيحرص جاسر على صد الخطر عنا.. و في كلتا الحالتين سنكون قد أنقذنا مصر.. و أعتقد لا خلاف بيننا على هذا.. فالقضية ليست قضية فتاة مصرية و رجل عربي.. القضية أخطر من ذلك.. انتهى الكلام.. و استعدوا لمواجهة الأمر..

***

و أعددت للأمر.. و لا أدري كيف مر بسهولة هكذا؟! .. و كأن يد القدر رتبت لي كل شيء دون عناء.. أحسست وقتها أنه السكون الذي يسبق العاصفة.. و مازلت أسأل نفسي:

– لماذا أظن بأن هناك عاصفة طالما أني أثق فيه؟!..

نعم .. لا تأتي الرياح بما تشتهي السفن .. و لكن .. ربما أنه الخوف من الخروج عن المألوف.. فقد اعتدت اللاخروج.. و عندما أخرج أبعد هكذا.. أترك وطني إلى وطن آخر.. لا أعرف عنه شيئا.. إلى عالم غير عالمي.. لا أنتمي إليه..

هاجس يطن في أذني.. و يخيفني من شيء.. و لا أدري لم بدأت أستشعر قيمة الوطن؟!.. قيمة بلدي.. أشعر باشتياق إليها حتى قبل أن أغادر أرضها..

و تذكرت قول ذاك الرجل.. أكمل المصري.. الذي سألته عن هذا الحب الذي يسمو عن حب الحبيب.. وقت أن كان يحاور إيمان على إحدى منشوراتها على الفيس.. فأجابني هو حب الوطن..

و لكن ما بيدي حيلة.. أحتاج أن أخرج.. و أن أخوض التجربة.. أحتاج أن أتنفس هواء آخرا.. أحتاج إليه و إلى أن نتقاسم حلمنا.. زمان كنت أخبره بأني أتوق إلى السفر.. أرغب في أن أهجر الأرض.. و أرحل إلى مكان بعيد.. أرغب في أن أطوف العالم.. و أن أمسي بلا وطن.. و لقد عاهدني أنه سيحقق لي حلمي.. و سيأخذني من يدي.. و يجوب بي البلاد.. و أنه سيكون لي وطنا أخلد إليه.. كلما ضاقت بي الدنيا.. و اعتصرني الألم.. و أخذنا نجول الأوطان بعقولنا.. و نرسم لنا المدن و القصور و الشوارع و الطرقات.. و نغوص فيها بوجداننا.. و يعود بنا الحنين إلى الواقع.. فنشكر الله على هذا الحلم الجميل.. و نكتفي بنظرات يملؤها الحنين.. الحنين إلي شيء مفقود ينقصنا أو ربما ننقصه..

***

تفاجأ جدي و جدتي عندما أخبرتهما الخبر.. و لكنهما رحبا به و لم أكن أتوقع.. و قالا لي:

– سافري و غيري من حياتك.. هكذا أفضل لك.. اخرجي من سجنك.. و لا تنسي هديتنا.. و اعلمي أننا دائما هنا من أجلك..

فرحت فرحة غير معهودة.. كاد قلبي أن ينخلع من مكانه.. و أكثر ما أدهشني هو موقف عمي مالك.. عندما تمنى لي حظا موفقا.. و لم يشعرني بالشك هذه المرة.. و لأول مرة ينتبه لإيمان.. و يقابلها في بيتنا.. و يوصيها علي.. و لكم كانت سعيدة به! .. و لكم استغربت من أمره! .. أمعقول أن يكون قد تغير؟! .. ربما أنه كان يمقطني لأني كنت كئيبة.. و اتخذت موقف الهجوم من كل شيء بعد حادث والدي الذي أظلم الدنيا في عيني.. و كنت أهاجم كل من يقترب مني حتى هو.. جحدته حتى جعلته ينفر مني.. أعلم أنه يعشق المرأة المختلفة.. ألأجل هذا تغير؟! .. لأنه اعتقد أني تغيرت.. يااه ما أجملني عندما أتصالح مع نفسي!..

كما أنه جلس معي في غرفتي طويلا يتحدث إلي.. أمسك بيدي ثم مسح على شعري.. يحدثني حديثا حلو عذبا.. و إن كان فيه كثير من الشجن:

– آسيا .. هل تعلمين مكانتك في قلبي؟!..

نظرت إليه في شيء من الاستغراب.. مكانتي في قلبه؟! .. أبعدت عيني عنه.. لا أستوعب..

– آسيا .. أريدك أن تعديني بشيء..

نظرت إليه.. أستوضحه الأمر.. و قلبي يرتجف..

– أن تعودي إلينا ثانية .. عاهديني يا آسيا .. رجاء..

قلت له بصوت مختنق:

– أتظن أني لن أعود؟!..

– ربما تفتنك الحياة هناك.. أخشى عليك بريق الأوهام..

– لا تخف من شيء..

– هل تعدينني؟!..

– لا يمكنني..

صمت قليلا.. يزيح عن نفسه تنهيدة عالية.. ثم قال لي.. و كان رقيقا:

– لن أضغط عليك.. و لكن .. أحب أن تعرفي شيئا..

نظرت إليه.. و في عيني تساؤل حائر عن هذا الشيء الذي يريد أن يصرح به.. قال لي:

– أشهد ألا امرأة إلا أنت..

رمى لي هذه الجملة ثم قام من مكانه و رحل.. أصابني الذهول.. و هو يلقي لي بعبارته.. إنها عبارة جاسر.. كيف جرت على لسانه؟! .. هل أنا أمام جاسر أم مالك؟! .. هل هو مجرد توارد أفكار؟! .. و إني أبالغ في الأمر.. و لكن يبقى أمرا.. ما الذي يعنيه؟!..

***

أخيراا ملكت حريتي.. أخيرا أنا حرة.. آااه أيتها الحرية لكم حلمت بك! .. و لكم تمنعت علي! .. إن شيء في صدري يتحرك.. يريد أن يصرخ و يقول:

– أنا حرة .. أنا حرة .. أنا حرة..

إيمان تضحك بصوت عال.. و تحاول أن تخفض صوت ضحكتها.. و آسيا تمسك بيدها و يرقصان.. و لا يشعران بمن حولهما.. و الكل ينظر إليهما نظرات إعجاب.. و هما لا يباليان.. إنهما ينعمان بحريتهما..

إيمان: أنت مجنونة.. و ستجنينني معك..

آسيا تضحك و تقول لها:

- تربعي معي على عرش الجنون..

و مازال يرقصان.. و ينتقلان بخطوات مدللة من مكان إلى آخر حتى يصطدما بجاسر.. فينظران له بإعجاب شديد.. و يضحك جاسر من رقصهما.. و يمسك بيد آسيا.. و يطيل النظر إليها.. و تطيل النظر إليه.. و كأنهما وحدهما في المكان.. و يعاودهما الحنين نفسه الذي تعوداه في وجودهما مع بعضهما.. إنه حنين وحدهما من يولداه..

***

- يااااه يا آسيا! .. آاااه منك! .. حيرتني معك.. أيتها الشاردة لكم أحبك! .. متى ستدركين؟!.. أرجو أن يأتي اليوم الذي أخبرك فيه عن كل شيء.. لتعلمي هذا السر الذي يثقل صدري.. لتعلمي أنك تجرين في دمي.. إنك أجمل شيء حدث لي في حياتي أو يمكن أن يحدث.. و لكنك متمردة عنيدة.. لا تسمعين إلا لصوتك.. و الذي يمليه عليك قلبك.. و أنت كثيرا بلا قلب.. لو أنك تأملت عيني.. لأدركت لم أنا أهرب منك؟!.. لم أتجنب لقائي بك؟!.. و لأدركت أشياء أخرى.. لا أملك أن أحدثك عنها.. إنه الخوف الذي ملأ عمري و عمرك.. و باعد بيننا إلى أبعد مدى..

***

لقد حكم القدر علي بأن ألعب دور عمك.. و أتقنت الدور حتى لا أجرحك.. و تظلين حبيبتي المجهولة.. التي خبأتها بين أضلعي عمرا.. لا يعلم به إلا الله.. يسألونني:

- من حبيبتك؟!..

فأجيبهم:

- لا امرأة..

و أكمل العبارة في نفسي عندما أستحضر صورتك:

- إلا أنت..

و أشهد بيني و بين نفسي:

- أنه لا امرأة أحببتها إلا أنت..

فأنت من علمتني معنى الحب.. و أني بدونك بلا هوية.. بلا انتماء.. بلا وطن.. الشيء الوحيد الذي أرغب فيه الآن أن أخبرك به.. و أشهد الله عليه:

- ألا امرأة إلا أنت..

فكيف لي أن أخبرك الخبر قبل فوات الأوان.. قبل ضياعك مني.. أعلم أني ألقيت لك بالخبر.. و شهدت أمامك بأنه لا امرأة إلا أنت.. و لكن الجملة تنطوي على معان كثيرة.. أريد أن أشرحها لك.. حتى لا يروح بالك لمعنى آخر غير الذي أقصده.. إن مدى حبي لك جعلني أبتدع شهادة أختزل فيها كل الحب الذي في قلبي لك.. و أرددها في قلبي صباحا و مساء.. لتكوني صلاتي الدائمة..

كان يكفيني أن أراقبك من بعيد.. و أن أهبك روحي لترعاك.. و لكنك الآن بعيدة.. تنشدين حريتك مع غيري.. و لو أنك تفهمين أنه لا حرية إلا معي.. أيتها المتمردة الشاردة الواهمة..

لقد عزفت عن النساء من أجلك.. ما استطاعت واحدة منهن أن تشغل هذا الحيز الذي شغلته في قلبي يا آسيا.. ما وجدت بهن ذاك الشيء الذي يميزك.. ما وجدته مجرد فراغ عميق.. كلما حاولت امرأة أن تقترب مني.. و تبذل جهدها لامتلاكي.. أجدني أهرب منها لأعود إليك.. كم تمنيت أن أرتمي في حضنك.. و أحكي لك.. و أنت تمسحين على رأسي برقتك المعهودة..

ليال خلوت فيها إلى نفسي.. في شقتي الخاصة.. فقط لأحيا معك.. فما من سبيل إلى لقياك إلا على هذا النحو.. حتى إيمان عندما كانت تأتني في شقتي.. و تقطع علي خلوتي.. ما كنت أسمح لها إلا لأنها

تحمل لي أخبارك.. و تقص علي اهتماماتك.. كنت أهتم بأدق التفاصيل في حياتك.. لأكون رغم البعد قريب منك..

أتذكر ليلة أن دخلت إلى غرفة مكتبي.. و وجدت بطاقة منك مكتوب عليها:

- أنت لي..

وقتها كدت أن أجن من فرحتي.. تساءلت في نفسي:

- ما الذي تعنيه؟! .. أمعقول أنك كشفت الأمر كله؟! .. و أخيرا علمت أني لست عمك؟! .. أني حبيبك المجهول.. أني حكاية عمرك.. هل أخبرك حدس خفي تملكينه بأنك في حياتي أكثر من مجرد ابنة أخ؟!..

تلك البطاقة جعلتني أنفعل إلى أقصى درجة انفعال عاطفي بك.. لدرجة أني عدت إليك ثانية.. أريد بشدة أن أخبرك بكل شيء.. و أن أزيح عن صدري دور عمك الذي التزمت به عمرا.. و لكن .. تعرفين .. لا أملك من أمري شيئا عندما يتعلق الأمر بمصر.. لابد و أن أضع قلبي في كفة و مصر في كفة.. و عندها رجحت كفة مصر.. بدونها لن تكوني آسيا.. و لن أكون مالك.. و نتيه عن بعضنا.. على الأقل أنت هنا.. قريبة.. جميلة.. رقيقة.. مطمئنة في مخدعك.. و كان يكفيني وقتها.. إلى أن تنتهي مهزلة ضياع الأوطان من أهلها..

و مازلت أحتفظ ببطاقتك:

- أنت لي..

تركتها حتى لا تشكين في الأمر ثم عدت و أخذتها.. و دعوت الله أن تنتبهي لغياب البطاقة .. و كما يبدو لي أنك لم تنتبهي.. كما لم تنتبهي لأمور كثيرة أحملها لك في قلبي.. كان يكفي أن تنظري في عيني لتريها..

دعك من كل هذا.. فقد فات أوانه.. كل ما أحاول أن أخبرك به الآن.. أني كنت أقرأ بطاقتك كل ليلة.. و أنا جالس على فراشي أستعد للنوم.. أفكر فيك.. و أسرح بخيالي في لفتاتك الغامضة.. و أهمس لصورتك بأني:

– أشهد ألا امرأة إلا أنت..

بطاقة قلبت لي كياني.. و منحتني أمل غير عادي لأن تكوني يوما ما لي.. و اطمأن هذا الهاجس الذي كان يطن في أذني بأنك قد تكونين لغيري.. فأثور في نفسي ثورة شك و حقد.. ثورة كادت أن تقضي علي.. عندما كنت أوجه مسدسي صوب رأسي.. لأحطم هذه الفكرة المجنونة التي سيطرت علي بأنك لست لي.. و لكن..

تهدأ نفسي.. و أشعر بحنين جارف إليك.. لا يمكنني أن أنتحر و أتخلى عنك.. إنها خيانة عظمى.. و لست أنا ممن يخونون.. و من أخون؟! .. أأخونك أنت يا آسيا؟! .. أنت يا نبضة قلبي.. يا قرة عيني.. يا سر وجودي.. أتعرفين أنك تشبهينني كثيرا؟! .. أنت بشكل أو بآخر قريبتي.. حبيبتي.. و كل ما لي في دنياي..

أنت حلمي و واقعي.. أنت قدري.. و طريق رسمته أناملي.. أنت وجداني و مهجتي.. و دموع عيني..

أنت من احتملتي حماقاتي كل هذا العمر.. و واجهت قسوتي معك بحب كبير.. أنت من طيبت جراحاتي.. استطعت أن تحققي المعادلة الكبرى.. و تصنعي من الحب معجزة اسمها مالك..

لم أتمرس على فنون الحب إلا على يديك.. و أنت تكبرين أمام ناظري.. كنت صبية مدللة.. عشقت فيك هذا الدلال.. و لا أدري متى تحولت إلى امرأة ناضجة مفعة بالأنوثة الطاغية المفرطة؟! .. و احتفظت بجدية جاذبة.. كأنني أمام ملكة من الملكات.. أنت خليط لا يفهم سره أحد.. و كأنك ترياق الحياة.. يكفي شربة واحدة منك.. تؤثر بمزيجها السري من يشربها.. محال أن تكوني امرأة عادية.. لقد تجاوزت كل تصورات لك.. من يريد أن يعرفك عليه أن يركع تحت قدميك.. و قبلها يقدم لك

فروض الولاء.. لتمنحيه سر خلودك.. و بعدها لا يمكن أن يسلاك.. و يظل قلبه معلق بك مدى الحياة.. إنه التحدي الأكبر.. تحدي حبك يا آسيا..

***

يااه يا آسيا! .. حيرتني معك .. كم كنت أتمنى أن ألقاك في ظروف أفضل من هذه! .. و لكن الظروف كلها تحاصرنا.. سامحك الله! .. لم وضعتني في موقف أصعب علي من نفسي؟! .. كيف سألقاك و أخبرك بأني حب عمرك؟! .. و أني فارسك المنتظر.. سأدللك كما تحبين.. فلم الشرود؟! .. ذهبت برجليك إلى من لا يرحم.. و اتخذت منه حبيبا.. و هو ألد أعداؤك.. ليتك تدركين أنه يكيد لك.. و أنه لن يحبك مثلما أحبك.. حتى عمك مالك.. لن يحبك بالقدر الذي أحبك به.. منذ أن راقبتك.. و أنا أراك بعين الحبيب.. لقد حولت كل الحقد عليك إلى مشاعر صادقة.. تنشد امرأة مثلك.. فمنذ أن راقبت طريقة حبك له.. و طريقة عطائك.. لقد منحته أجمل إحساس يمكن لامرأة أن تمنحه لحبيبها.. إن الحنين الذي كنت أراه بينكما.. كان يفجر بداخلي غيرة ما بعدها غيرة.. كلما كان يستنشق عبير شعرك.. كنت أشعر بالنار تضرم في جسدي.. كلما كان يضع يدك على قلبه.. أحس جوارحي كلها تنتفض.. معلنة ثورتها عليكما.. و لكني في نهاية اللقاء.. أعود خائبا إلى نفسي.. لا أملك إلا حسرتي عليك.. و أقول في نفسي:

– معه حق.. فمن يملك إلا أن يحبك يا آسيا..

و ها أنا أشهد بيني و بين نفسي كما اعتدت كلما رأيتك:

– أنه لا امرأة إلا أنت..

***

لا امرأة تعادل وجودك في هذه الدنيا.. فأنت الحب الذي ينشده كل عاشق.. أنت عبق الزمان.. و أنشودة التاريخ.. أنت الحنين الذي يخالج مهجة الفؤاد.. أنت نكهة برائحة الوطن.. كلما تأملت النهر..

رأيت وجهك الندي على صفحته.. أنت تشبهين فلاحة مصرية صبية.. لا تكبر أبدا.. و كأن الزمن توقف عند ملامحك الأصيلة.. يتفرسها بدقة حكيم.. يحاول أن يكتشف طلاسمها.. اكتسبت خمريتها الجذابة من هذه الأرض الطيبة.. و رائحتها من عبير الطمي النيلي الأسمر الغامض.. فكنت أنت يا آسيا..

علمني حبك يا آسيا أن أرسم على الهواء ملامحك الخالدة.. و أستدعيك لتجلسي معي على الشاطئ كملكة متوجة.. نحتسي الشاي سويا.. شاي أحمر ثقيل يشبه شاي الصعايدة.. الذي يوزن العقل بميزان الحب الدافئ.. بنسائم شرقية حالمة في قلب كل رجل عربي..

كيف أنسى ابتسامة شفتيك؟! .. عندما تعمدت أن ألامس كتفك.. و أنا أمر بجانبك.. و أنت تنظرين لي ببراءة الأطفال.. عندها شعرت بوخزة في صدري.. و علمت أن سهم حبك قد نفذ إلى قلبي.. و من وقتها أدمنتك.. و كان لقاؤك مع جاسر هو بالنسبة لي حكاية حياة.. كان في لقائكما زادي و زوادي.. ملئت بوجودك حيز الفراغ الذي كنت أعاني منه طيلة عمري الضائع من دونك..

تحملت الكثير من أجلك.. كتمت في نفسي غيرة عليك لا مدى لها.. طعنت في صدري كبرياء رجل.. تربى على عزة النفس.. و مازال جرحك ينزف بداخلي.. أن تكوني لغيري.. و أنا أبارك هذا الأمر.. فهى طعنة شرف في عمري.. لا يمكنني أن أحتملها.. و لا أدري كيف تلقيتها؟! .. و لكن القضية قضت بأن يتنازل الكل.. و نشترك جميعنا في اللعبة من أجل حب أكبر هو حب مصر.. و لقد أخبرتك عنه سابقا عندما سألتني متعجبة:

– أيوجد حب أسمى من حب الحبيب لحبيبه؟!..

و عندها أجبتك:

– نعم .. حب الوطن..

و تمنيت أن تفهمي مرادي.. تمنيت أن تدركي أنك و الوطن وجهان لعملة واحدة.. و أن من يحبك لابد و أن يحب فيك مصر.. و أن من يحب مصر لابد و أن يحبك يا آسيا.. إنها المعادلة الصعبة.. التي لا يدرك كنهها إلا الرجال.. لذلك فأنا لا أستغرب تغير جاسر من أجلك..

نحن لم نفرط فيك يا آسيا مطلقا.. و لا يمكن لنا.. فأنت تشبهين الوطن.. و الوطن يشبهك.. تستمدان من بعضكما ذاك الحنين المعهود.. هناك حنين من نوع خاص ينتمي إليكما.. حنين لا يمكن أن نستشعره إلا في وجودكما.. يظل معلقا بالقلب.. يراودنا بين الحين و الآخر.. يوقظ فينا غفلة الأيام.. إذا ما أخذتنا الحياة.. إذا ما سرقت الأيام من عمرنا..

و أنت تقدرين قيمة الوطن.. و أننا بلا وطن لا شيء يذكر.. و مصر ليست أي وطن.. إنها أم الدنيا.. عار علينا أن نتركها تضيع منا.. نحن بدونها لن نكون.. مجرد غرباء في المنفى.. و ليس عهدنا أن ننفى إلى أوطان أخرى.. و لكن عهدنا أن نموت ليحيا الوطن.. أن نقدم أرواحنا فداء لهذه الأرض الطيبة.. أن تختلط دماؤنا بترابها الطاهر.. فتنبت الأرض من أصلابنا رجالا آخرين.. يرثون منا البقاء على العهد..

إنه ميثاق أقسمنا عليه.. ميثاق شرف لرجال شرفاء.. رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. و لا يخافون في الحق لومة لائم.. يتمنون الموت كل يوم و ليلة من أجل شيء واحد فقط هو مصر.. و لا شيء آخر يضاهي مصر في قلوبهم.. و لا شيء يعادلها غير أرواحهم.. يقدمونها بنفس راضية مطمئنة..

لقد أجبرونا يا آسيا على وضعك في مثل هذا الموقف.. هناك أناس يعيشون فقط على هدم غيرهم.. يستمدون من ضعف الآخرين قوتهم.. لذلك فهم يحرصون كل الحرص على أن يبقوهم خاضعين لهم.. و لكنا رفضنا الخضوع.. و كان لابد من الثمن.. و الثمن كان غاليا.. و فقدنا الكثير.. و كادوا أن يدمروننا.. لولا فضل الله.. و يد القدر التي خلقت لنا معجزة اسمها آسيا.. استطاعت أن تحقق معجزة أخرى على أرضنا.. و تحول الدمار إلى سلام.. و الحقد إلى كراهية.. إنها معجزة يا آسيا..

نعم أنت طبقت نظرية الحب يصنع المعجزات.. وحدك من تمكنت من تغيير مجرى الأحداث بشكل فارق لنا.. ما كان يخطر ببالنا أن يأتي على هذا النحو.. لذلك فنحن مدينون لك.. و لا يمكننا أن نتخلى عنك بأي شكل من الأشكال.. و كان عليك أن تكملي الأمر من أجلنا.. و أنا على يقين أنك لم تكوني تترددي لحظة واحدة لو طلبنا منك هذا.. و لكن سرية القضية أمر حتمي.. عليك أن تتقبليه و تقدريه من أجلك و من أجلنا.. فسامحينا.. لم و لن نفرط فيك أبدا.. أنت آسيا و ستظلين آسيا..

***

يدخل مالك على أكمل في مكتبه.. ينظر إليه بحدة.. و في جرأة واضحة.. فقد امتلأ الاثنان غضبا من بعضهما.. إنهما يعلمان جيدا مدى الحب الذي يحمله كلاهما في قلبه لآسيا.. و الذي أشعل نار الغيرة بينهما.. و لكن كان عليهما أن يتخليا عن حبيبتهما لرجل آخر.. ألد ما يكون لهما.. إنه عدوهما اللادود الذي فاز بآسيا..

مالك يحدث أكمل بحدة غير معهودة و كأنه أوشك على الانفجار:

– لن أغفر لك لو أنها عرفت من غيري و ليس مني..

– المهم أن تتفهم و تقدر..

– ستلقي باللوم علي.. ستظن أني تلاعبت بها..

– ليست آسيا يا عزيزي التي تفكر على هذا النحو..

– لقد أهملتها وقتا.. لقد جعلتها تعاني في بعدي عنها.. لا أدري إن كانت ستغفر لي أم لا؟!..

– ستغفر..

– لقد ضيعت عمرها..

– و إيمان!! .. ألم يضع عمرها؟!..

– لقد اختارت..

– و لو آسيا تعلم لاختارت الاختيار نفسه.. هذا قدرنا يا مالك.. أن نضحي من أجل مصر.. هى قضيتنا التي تستحق أن نختار أو لا نختار.. و لكن القدر هو الذي يختار و يحدد و يرسم حبكته.. و كما ضحت آسيا علينا أن نضحي من أجلها..

– أتركها له؟! .. هيهات..

– أنت تعرف أنه يحبها.. يحبها أكثر مما تتصور.. و لكنك ترفض هذا الحب.. و ترفض أن تصدقه..

– ألست أولى منه بها؟! .. إنها حكاية عمري .. يمكنني أن أداوي جرحها.. حبي لها سيشفع لي عندها..

– ليس الأمر سهلا كما تظن.. تحتاج وقتا .. اترك لها حيزا من الوقت لتعيد حساباتها..

– أو ربما أنك تخطط لشيء آخر..

– رجاء .. أرفض لهجة الشك هذه..

– أحذرك أن تستأثر بها لنفسك..

– ليتني أستطيع.. و لكن..

– أرأيت؟! .. أنت تكن المشاعر لها..

– و لا أنكر.. و لكن هناك أولويات.. ليس لدينا وقت كي نحب..

– لقد تعبت..

– كلنا تعبنا.. و علينا أن نتعب من أجل أن تبقى بلدنا..

– مشكلتك أنك مثالي.. أما أنا فليس كذلك..

– بل أنت كذلك.. و لكنك لا تدرك.. لقد ضيعت عمرك من أجل آسيا..

– وقتها كانت بجانبي.. و كنت أكتفي منها بذلك.. حاصرتها حتى لا تفلت مني.. و لكنها قد أفلتت بالفعل.. لن أتركها لغيري.. لن أتركها لذلك العربي الحقير..

– ليس حقيرا.. لقد تغير كثيرا.. و أبدى حسن نواياه.. و لكنك رفضته لأنه يحب آسيا.. و عملت على طرده من البلد.. و غفرنا لك ذلك.. و أنت تعلم أنه كان مصدرا مهما لنا بما لديه من أسرار..

– كيف أتعامل مع مثل هذا الخائن المتكبر؟!.. ليس لدي أي ثقة به.. و لتنظر عندما أخرجناه من البلاد.. كيف كاد لنا و خطط و دبر للأمر..

– أنت من تسببت في ذلك كله.. إنه حاقد عليك لأنك حرمته حبيبته.. نعم كاد لنا فترة كرد فعل على حرمانه من آسيا و لكنه راجع نفسه.. و ماطل معنا و معهم.. و هذا دلنا على أنه غير قوانينه.. و انظر عندما عاد إليها كيف بدأ يهدأ.. و يوقف اللعب معنا..

– فترة مؤقتة لحين أن يضمن آسيا له ثم ستراه على حقيقته سينقلب ثانية..

– و لو كسبناه معنا سنربح الكثير.. و أنت تعلم أن لديه الكثير لنا.. الخطة كلها على مكتبه.. و لو سلمنا إياها.. سنتفادي خطرا كبيرا يداهمنا ويهددنا و يهدد هيبتنا..

– و الحل؟!..

– سنتمهل .. و نرى..

– لم نؤمن آسيا كما ينبغي..

– و هل معه تحتاج إلى تأمين؟!..

– إنه أخطبوط..

– إني أخشى عليها منه هو بالذات..

– بعد كل هذا الحب الذي يحبه لها..

– إنه مخادع ليس أكثر..

– بل إن طبيعتك الشكاكة هى من تتخذ منه هذا الموقف الهجومي..

– و ما الذي جعلك واثق هكذا؟!..

– الحب يا مالك.. الحب .. الحب يصنع المعجزات..

– و أي معجزة صنعها الحب؟!..

– لقد حول الدمار الذي كاد أن يلحق بنا إلى سلام.. إنه الحب .. و لكنك تحتاج الكثير لكي تتعلمه.. أتصدق أمرا؟! .. لو أن حبك صادقا كما ينبغي لوصل إلى آسيا..

– يصل!! .. كيف يصل؟! .. و بيني و بينها حكاية وطن..

***

– مالك يا آسيا.. ما بك تشردين؟! .. أرى في عينيك نظرة حائرة.. كأنك تبحثين عن شيء غائب عنك..

– لا أدري.. كان بي رغبة مستبدة لأن أرحل إلى مكان آخر غير المكان.. و لكن..

– و لكن .. ماذا؟!..

– يتنازعني الحنين بين بقائي مع حبيبي و بين ذكرياتي في وطني.. لا أدري أيهما أريد؟!.. لماذا لا يجتمعان لي؟!..

– تعتقدين أنه في الإمكان..

– إني مؤمنة بأن الوطن بلا حبيب أشبه ببقعة مقفرة.. و أؤمن بأن الحبيب هو الوطن..

– أفهم أنك حددت موقفك..

– نعم سأظل معه و لن أعود ثانية..

– و لكني أراك غير واثقة.. و إلا لم أنت مضطربة هكذا؟!..

– مسألة اعتياد.. و سأعتاد الأمر..

– ربما لا تقدرين.. راجعي نفسك..

– معه سأقدر على ما لم يمكنني أن أقدر عليه يوما..

– متأكدة؟!..

– افهميني.. إنه يمنحني الخلاص.. إنه يعطيني حريتي.. إنه يمنحني السلطة و القوة.. بدلا من حالة القهر التي أحسها مع غيره.. إنه الوحيد الذي أشعرني بأني ملكة متوجة على العرش.. هل تدركين معنى ذلك؟!.. لا يمكنك إلا عندما تتذوقينه..

– أهذا قرارك النهائي؟!..

– إني على موعد معه.. و بعدها سأخبرك بقراري النهائي.. أرجوك احذري عمي مالك.. لأنه غالبا ما سيكلمك ليعرف أخباري.. فكوني على حذر..

– لا تخافي .. آسيا..

– نعم..

– أريد أن أخبرك بشيء..

– ما هو؟!..

إيمان صامتة حائرة مترددة..

– طبعا الأمر يتعلق بعمي مالك..

– آسيا .. إن مالك يخاف عليك فوق ما تتخيلين.. فلا تقلقي منه أبدا..

– و ما أدراك؟!..

– الطريقة التي أوصاني بها عليك أخبرتني..

– و لكنه حاد عنيد.. لا أدري لم يتملكني الرعب منه؟!..

– ربما لأنه قوي الطباع؟!..

– جاسر أيضا قوي الطباع و لكني لا أخاف منه.. مالك قاس في طريقته معي.. حاد الأسلوب..

– تبالغين يا آسيا.. على ما يبدو لي أنت لا تعرفين مالك كما ينبغي..

– أو تعرفينه أنت؟!..

– أرى فيه جانبا لم تريه يا آسيا..

– ربما.. المهم سألقاك بعد أن أقابل جاسر..

– وهو كذلك.. تمتعي بوقتك.. إني أؤمن بكما.. إن الرجل الذي يفعل هذا مع حبيبته و من أجلها.. لا يمكن التنازل عنه بهذه السهولة..

– أعتذر لك يا إيمان.. أعتذر لك عن عمي مالك.. و ما يحدثه لك من ضرر نفسي..

– لا عليك يا آسيا.. أنت على حق.. و كل ما أعيشه أنا ما هو إلا سراب..

تردد في عيني آسيا سؤال حائر.. لاحظت إيمان رغبة آسيا.. فسألتها بعينين صامتتين:

– ماذا هناك؟!..

فهمت آسيا سؤال إيمان و صرحت بما في نفسها لإيمان:

– لماذا تفعلين هذا من أجلي؟!..

اقتربت إيمان من آسيا..و احتضنتها بقوة.. ثم قالت لها:

– لأني أحبك..

***

جاسر يلتقي بآسيا في قاعة كبيرة من قاعات الفندق الذي يملكه.. أعدها خصيصا من أجل لقائهما.. جعلها قاعة مبهرة في تقاسيمها.. ملأها بمختلف ألوان الورود ذات الرائحة الخلابة.. تفتح على شرفة واسعة.. أطلق فيها بعض الطيور النادرة.. تتوسطها نافورة عازفة.. على جانبيها تمثالان لرجل و امرأة يعزفان على الكمان.. انعكاس الأضواء على المياه يعطيها ألوانا جميلة جذابة..

فتح الباب لأسيا رجلان يرتديان بدلة سوداء.. و دخلت آسيا إلى هذا المكان الذي نقلها من عالم الواقع إلى عالم السعادة الحقيقية..كانت ترى نفسها في أحلامها ملكة.. و ها هو حلمها يتحقق.. إنها ملكة بين يديه.. إن قلبها ينتفض.. و ابتسامة عريضة ترتسم على وجهها عندما تقدم نحوها.. و ركع تجاهها يقبل يديها و يقول لها:

– أشهد ألا امرأة إلا أنت..

و آسيا تضحك بدلال.. و تملأ الموسيقا المكان.. و تعزف الفرقة الموسيقية أعذب مقطوعة سمعتها آسيا.. و يرقصان وقتا لا يدريان منه شيئا و لا كم مضى.. و في نهاية الرقصة يجلسان إلى المائدة التي

أعدها لهما.. و يقدم لها نوتة موسيقية بعنوان آسيا.. ألفتها الفرقة من أجلها.. عنوانها آسيا الروح.. و بعينين دامعتين سألت آسيا جاسر:

- لم كل هذا؟!..

فأجابها في خشوع:

- لأني أحبك..

- و هل كل من يحب يفعل هذا؟!..

- آسيا .. أنت لا تعرفينني كما ينبغي.. و لو تعرفت علي سيختفي استغرابك تماما..

- و لكني أستشعر الأمر..

- و هذا لا يكفي.. تحتاجين إلى أن تعرفيني أكثر.. فاسمحي لي أن أعرفك بنفسي.. و نحن نتناول عشاءنا..

يتناولان العشاء بحنينهما المعهود.. ذاك الحنين الذي يجمعهما و يفرقهما.. و لا يولد إلا في وجودهما واقعا أو خيالا.. و مما لاشك فيه أن العشاء كان أنيقا حالما.. من أفخر أنواع المأكولات.. فيه رومانسية عالية حتى في أبسط تفاصيله..

- آسيا أنا رجل ثري للغاية.. إلى أبعد ما يبلغه خيالك.. أعد من أثرياء العالم..

- أتعلم أني أحب ذلك كثيرا..

- كلنا نحب سطوة المال.. يجعلنا أقوياء..

- و من يقول غير ذلك فهو مخادع..

- أو أنه لم يتذوق سطوة المال.. هناك أغبياء يملكون المال و لا يقدرونه..

– كيف؟!..

– من شدة حرصهم ألا ينقص منهم يحرمون أنفسهم أن يستمتعوا به..

– و أنت؟!..

– أنا أعرف كيف آتي بالمال.. و أعرف أيضا كيف أستمتع به.. و لا أخشى فقدانه.. لأني في الأصل لا أفقده..

– تنظر آسيا إليه بإعجاب شديد..

– حديثك ممتع .. رجاء أكمل..

– آسيا أنا رجل عصامي.. بنيت نفسي بنفسي.. لدي ذكاء غير عادي و نسبته عالية.. و على فكرة أجريت علي دراسة.. و أثبتت أني من أذكي أذكياء العالم.. و طبعا الرجل الذكي ينقصه القوة لكي تكتمل له الحياة.. لم أكن غنيا.. و لكني عرفت كيف أتي بالمال.. حتى صنعت لنفسي امبراطورية.. و هو ليس بالأمر السهل.. أصبحت رجلا اقتصاديا لا يستهان بي.. و تعاملت مع أكثر أجهزة الدول خطورة..

– يااااه معقول هذا!..

– نعم و أكثر من ذلك.. سأحكي لك كل شيء عني.. و اعلمي أني لم أتحدث إلا لك أنت وحدك.. فأنا غامض كثير.. و علي علامات استفهام كثيرة.. حيرت أقوى أجهزة المخابرات معي.. و أولهم الجهاز المصري.. و أعترف لك أنه من أصعب الأجهزة التي تعاملت معها.. و لا سيما عمك مالك..

– عمي مالك!!..

– ألا تعلمين أنه من رجال المخابرات المصرية؟!..

– ماذا؟! .. بالله عليك.. ما الذي تقوله؟!..

– هذه هى الحقيقة..

– أي حقيقة تتحدث عنها؟!..

تسرح آسيا بعيدا ثم تقول لجاسر:

– ألهذا تركني أسافر؟! .. إنه يعلم..

– نعم يعلم.. إنه يراقبك.. و يحاصرك منذ علاقتنا الأولى..

– لا أفهم شيئا .. بالله عليك لا تخرجني من هذه السعادة التي أحياها.. لا تقل لي ما لا أريد سماعه..

تقف آسيا من مقعدها في حالة هياج:

– هذا يعني أنك جاسوس .. و أنا .. أنا .. خائنة..

تجري آسيا خارج القاعة إلى أن تخرج من باب الفندق إلى الشارع.. مازالت آسيا تجري في ذهول.. تمتلئ عيناها بالدموع.. و تحجب عنها رؤية الطريق الذي تركض فيه.. و فجأة تنزل على ركبتيها.. و تنظر إلى السماء ثم تصرخ يارب.. و فجأة أيضا تجد شابا عربيا وسيما يتلقى عنها طلقة رصاص.. فترتجف .. و تصرخ .. و تنظر إلى هذا الشاب .. و هى تبحلق فيه .. و تسأله:

– هل أنت بخير؟!..

فيجيبها:

– نعم سيدتي آسيا.. لا تقلقي.. و لكن عليك أن تعودي إلى الفندق لأنك هنا في خطر..

تنظر إليه في ذهول ثم تقول له:

– لا أعرف طريق العودة..

يطمئنها:

– لا تقلقي.. فأنا هنا لحمايتك.. و سأعود بك سالمة فاتبعيني..

مشت آسيا مستسلمة بجانب هذا الشاب دون أن تنطق بكلمة.. أرهقتها كثرة الشكوك حتى لم تعد تطيق أن تفكر.. وصلت إلى باب الفندق و قبل أن تدخل إليه التفت إليها الشاب العربي و قال لها:

– لا تخشي شيئا.. سألازمك كظلك..

نظرت إليه في ذهول.. ثم أخذت طريقها إلى جناحها في الفندق.. فاستقبلتها إيمان قائلة:

– آسيا .. ما الذي جرى لك؟! .. تبدو حالتك مذرية للغاية..

– إيمان أرجوك اتركيني لأنام.. و بعدها نتكلم..

– و هو كذلك..

تلقي آسيا بنفسها على السرير.. و تروح في نوم عميق.. تمسح إيمان على شعرها.. و تقبل رأسها..

***

لم يصب الشاب الذي تلقى عنها الرصاصة بأي أذي.. فقد كان يرتدي سترة ضد الرصاص.. شاب من رجال جاسر الذين يثق بهم ثقة عمياء.. فلديه من الرجال من يدينون له بوفائهم.. و يقدمون له فروض الولاء طوعا.. كان لفضله عليهم ما جعلهم ينتمون إليه في كل شيء.. و يلازمونه كظله.. على أتم استعداد أن يضحوا من أجله.. فما كان يغدق به عليهم من مال كفيل بأن يضمن له ولاءهم.. هذا بالإضافة إلى بعد نظر جاسر في انتقائه لرجاله الخواص.. كان لديه فراسة من نوع ما في انتقاء الرجال بما تحمله الكلمة من معنى.. رجال يعرفون كيف يلتزمون مع ولي نعمتهم.. الذي جعل منهم فرسان أقوياء على هذا العالم.. و أعطاهم حصانة ليست لغيرهم.. إذ أمدهم بالمال و السلاح.. و كل ما يرفه عنهم في الحياة.. كما جعل لهم مكانا حصينا.. يلتقي فيه معهم.. ليتقرب إليهم أكثر.. مكان يحتمون فيه وقت الشدة.. و ينقذون أنفسهم من أي أذى قد يلحق بهم.. مكان مجهز بكل الامكانيات العالية.. و

كأنك في مدينة إلكترونية.. نهيك عن الطائرات الخاصة التي تحملهم من المكان و إليه.. و لا يمكن لأحد أن يخترق المكان غير جاسر و رجاله.. هؤلاء الرجال الذين صنعهم جاسر في مصنعه الخاص.. فخرجوا على النحو الذي يرضيه عنهم.. و يجعلهم راضين عنه.. لقد اعتاد جاسر أن يتقن كل شيء.. بحيث لا يسمح لأي شيء أن يخذله..

***

إيمان تحدث مالك عبر الهاتف.. لتبلغه أخبار آسيا.. إنها تخاف عليها كثيرا.. و تشعر بالذنب ناحيتها.. و لا تريد لها أن تعيش مثل هذا الموقف..

– مالك آسيا في حالة انهيار تام.. إنها مصدومة.. إني خائفة عليها..

– أرجوك يا إيمان انتبهي عليها.. و لا تتركيها في هذه الحالة لوحدها..

– ألهذه الدرجة تحبها؟!..

– و أكثر.. لم أخدعك في شيء..

– و لكنها لا تحبك.. إنها تحبه..

– موهومة..

– لا .. لا ليست موهومة.. إنها تحبه و هو يحبها.. هذه حقيقة ترفض أن تسلم بها.. رجاء دعهما و شأنهما..

– بل أنت التي موهومة .. تظنين أني عندما أتخلى عن حب آسيا سأحبك أنت.. واهمة..

– و لم لا؟! .. آسيا هى التي تحجبك عني.. و لولاها لكنت ملكي أنا.. فأنا وحدي التي تفهمك.. أنت لي و لن تكون لغيري..

– أنت مجنونة..

– أنت الذي جعلتني أهذي بك.. و أقل تعويضا لما فعلته بي أن تحبني أنا.. و أن تكون لي وحدي.. سأخبر آسيا بكل شيء..

– انتظري يا مجنونة..

– لا .. لن أنتظر.. لقد تحررت من سطوتك.. لقد تعلمت من آسيا أن أتحرر من كل ما يقيدني معه.. سأخبرها .. سلام..

و في الوقت نفسه الذي تقرر فيه إيمان أن تواجه آسيا.. تجدها واقفة تجاهها في تحد.. و قد سمعت كل شيء.. تنهرها بعينيها.. تريد أن تفهم منها.. تشعر إيمان بالحرج.. و تدير نظرها بعيدا عنها ثم تخبرها:

– سأحكي لك كل شيء.. أنا هنا لأراقبك.. و أبلغ كل أخبارك لمالك.. كما اتفقت معه..

– اتفقت معه؟!..

– نعم فأنا أعمل معه..

– تعملين معه؟!..

– في جهاز المخابرات المصرية.. مع مالك.. في فريقه..

– كنت أظن أنكما لا تلتقيان إلا بالكاد..

– أرجوك يا آسيا..

– أرجوك ماذا؟!..

– قدري طبيعة عملنا..

– لا شأن لي بطبيعة عملك.. أنت خدعتني بعد أن وثقت بك.. فاخرجي من حياتي.. و لا شأن لك بي..

تتجه آسيا ناحية باب الجناح.. و تفتحه ثم تنظر إلى إيمان.. و تأمرها بغيظ شديد..

– اخرجي من هنا..

– لا يمكنني أن أتخلى عنك.. فأنت لا تدركين حجم ما تواجهينه..

– أو تخافين أن يغضب منك عمي مالك.. لا لا لا تخافي.. أخبريه أني أنا التي طردتك.. و أنه لا ذنب لك.. هيا اذهبي إليه.. و أخبريه أنه لم يعد عمي..

– آسيا .. إنه ليس عمك.. مالك ليس عمك..

تنظر إليها في ذهول..

– ما الذي تقولينه؟! .. أنا لا أصدقك..

– هذه هى الحقيقة التي عليك أن تعرفيها.. مالك ليس عمك.. كنت أتمنى أن أخبرك من زمان.. و هو أيضا كان يريد أن يخبرك.. و لكن الأوامر قضت بألا نخبرك بشيء.. و نظل نتعذب..

– تتعذبان؟! .. بالله عليك .. من الذي تعذب؟!..

– كلنا تعذبنا يا آسيا..

– لا أفهم شيئا.. ما الذي يحدث لي؟! .. أي ذنب جنيته؟! .. ياربي!..

– تمهلي يا آسيا.. و اتركيني أخبرك ببعض الأمور.. هناك أشياء مهمة ينبغي لك أن تعرفيها..

– لا أريد أن أعرف شيئا..

– لا بل ستعرفين.. جاء الوقت الذي عليك أن تفمهي لتقدري.. سأحكي لك:

بعد أن تخرجت من الجامعة.. كلية الطب النفسي.. لمست في نفسي ذكاء من نوع خاص.. فقدمت في مكتب المخابرات العامة.. و اجتزت الاختبارات بجدارة.. و خضعت للتدريب شهورا.. و كنت ضمن فريق أكمل و مالك.. اختاري أكمل لأكون رفيقتك..

– لحظة من فضلك .. من يكون أكمل؟! .. أهو ذلك الرجل الذي كان يحاورك على صفحتك على الفيس؟!..

– نعم هو..

– شعرت من حديثه إلي أنه يعرفني..

– بالطبع يعرفك.. و يعرفك عن قرب.. لقد كان يراقب لقاءاتك مع جاسر.. في ذلك المكان الذي كنتما تلتقيان فيه..

– معقول!!..

– ليكون الأمر تحت السيطرة.. لا تستهيني بجاسر يا آسيا.. إنه مخضرم في هذه الأمور.. ما علمناه عنه أمر يفوق التصور.. منذ صباه و هو داهية.. نحن نعتبره حالة نادرة.. لا تتكرر كثيرا..

– جاسر!!..

– نعم يا آسيا جاسر.. المهم..

كان لابد لي أن أحافظ على سرية العملية.. لم أخدعك كما تظنين.. و لكنه ميثاق شرف تعاهدنا عليه من أجل مصر.. قربي منك جعلني أدرك كم هو حبك لمصر.. و أنك في يوم ستقدرين.. و يعلم الله أني أحببتك من قلبي.. و اعتبرتك شيئا مهما في حياتي.. شعرت أنك ملزمة مني.. صديقتي الوحيدة التي أعتز بها كثيرا.. و لا يمكنني الاستغناء عنها.. رافقتك كظلك.. كنت دائما ما أذهب إليك.. الأول من أجل المهمة التي كلفت بها.. ثم وجدت في قربك ما يقربني من مالك و لو من بعيد.. فأنت الوحيدة

التي بوحت لها بسري.. و بحبي لمالك.. كنت أرى فيك مالك بشكل أو بآخر.. و بعدها بدأت أتعلق بك أنت شخصيا.. لمست فيك كل ما هو أصيل و جميل.. و كأنك ترديني إلى نفسي كلما توهت عنها.. جلوسي إليك أفادني.. رغم أني طبيبة نفسية.. و لكن .. سبحان الله! .. هناك أشياء انفردت بها يا آسيا.. أشياء تشبه الطبيعة في فطرتها التي جبلت عليها.. أمور لا يمكن أن تكتسب.. لقد حباك الله بها لحكمة عنده.. فالله وحده يعلم أنك أتيت لمهمة صعبة.. ستغيرين مجرى الأحداث لتكون في صالح مصر.. لتظل مصر بإذن الله آمنة مطمئنة بفضل الله ثم بفضل شعبها.. و أنا و أنت و مالك و أكمل من شعبها.. لقد اختارنا القدر و علينا أن نمتثل له.. شرف قضت الحياة بأن ننالها.. هناك من يضحي بروحه يا آسيا و ليس بقلبه فقط..

– معك حق.. إن كانت الروح أغلى ما نملك.. فيصغر دونها أي شيء آخر..

– لقد خفف الله عنا يا آسيا.. و لم نجود بأروحنا في سبيل وطننا.. فأي جراح أخرى يمكنها أن تداوى..

– لا يهم أي جراح تنزف.. المهم أننا في مأمن..

– سامحيني يا آسيا إن كنت خذلتك.. و لا تعتبري أن في قربي لك خداع لك.. لم أحاول أن أؤذيك في شيء.. رغم أنك تقفين بيني و بين مالك.. كان قلبي ينفطر عليك لضياع جاسر منك.. و كان قلبي ينفطر على مالك لمعاناته في حبك.. و التي لم يشعر بها سواي.. و لم ينفطر قلب أحد من أجل ضياع مالك مني.. أو معاناتي في حبه..

– قاس هو مالك..

– كثير يا آسيا.. و لكن في حبك يكون قلبه كقلب طفل صغير..

جرت آسيا ناحية إيمان.. و ارتمت في حضنها.. و انهمرت دموعها.. و قالت لها بصوت يعتصره الألم:

– سامحيني يا إيمان .. سامحيني.. أنا التي آذيتك..

مسحت إيمان على شعر آسيا.. و قالت لها بقلب موجوع:

– ثقي يا آسيا تماما أن قلبي لم يقدر أن يحمل لك أي ضغينة أو يحقد عليك بأي شكل..

– لا أدري ما الذي أقوله لك؟!..

– لا تقولي شيئا.. و لا تحملي نفسك فوق طاقتك.. لقد مررت بفترة عصبية.. كنت شبه ضائعة.. فلا تلومي نفسك على أي تصرف..

– لقد تسببت في جرح كل من أحبني..

– هذه التجربة أحدثت فينا صحوة لأن نعيد ترتيب حسابتنا يا آسيا.. لم نكن نشعر بقيمتك لو لم توشكي على الضياع منا..

– ربما من ضياعي وجدت نفسي..

– آسيا أحب أن أقول لك شيئا حتى أرتاح..

– ماذا؟!..

– جاسر فعلا يحبك و قدم لنا الكثير من أجلك..

– صحيح!!..

– نعم..

– هناك شيء آخر..

– ما هو؟!..

– مالك .. حبه لك لا يقل عن حب جاسر لك..

– أنت التي تقولين ذلك؟!..

– وحدي من تستطيع أن تقول ذلك.. لقد لمست حبه بنفسي في لهفته عليك كلما التقيته..

– تحملت الكثير من أجلي يا إيمان..

– واجبي يا آسيا .. لا يمكنني أن أتخلى عنه..

***

مالك يتصل على إيمان في لهفة لأن يعرف أأخبرتها الخبر؟! .. و يسألها في لهفة:

– هل أخبرتها؟!..

– نعم..

– هاتيها إلي..

آسيا مالك يريد أن يتحدث إليك..

– لا لا لا.. لا يمكنني أن أحدثه..

– مالك لا يمكنها أن تتحدث إليك..

– أخبريها أني أريدها في أمر مهم.. لابد لها أن تسمعه مني..

– آسيا يريد أن يخبرك بأمر مهم.. يحتاج لأن تسمعيه منه..

– لن أكلمه..

– بالله عليك .. لا تعاندي.. إنه يظن أني أنا التي تمنعك من الكلام معه..

– لا يعنيني ما يظنه .. قولي له: لن تكلمك..

– مالك إنها مصرة.. كلمها في وقت آخر تكون هدأت..

– لا أريد أن أكلمه نهائي.. أسمعت؟!..

– أسمعت؟!..

– ضعي السماعة على أذنها.. و لا تجعليها تكلمني بل تسمعني فقط..

تقترب إيمان من آسيا.. و تضع السماعة على أذنها.. و تقول لها:

– اسمعي فقط و لا تجيبي..

– آسيا .. سامحيني .. بالله عليك سامحيني.. إني أحبك.. أقسم لك أني أحبك..

و في حركة عصبية تبعد آسيا السماعة عن أذنها هامسة:

– ما هذا الهراء الذي يقوله؟!..

– ليس هراء إنها الحقيقة التي أراد أن يخبرك بها من زمان..

– أسمعته؟!..

– من غير أن أسمعه.. أعرف ما الذي يريد أن يقوله لك..

– لا أفهم..

– كل ما أريدك أن تفهميه أني تعذبت كثيرا بسببك.. و لكني لست حانقة عليك.. لأني أحبك.. و لا ذنب لك.. إنه ذنبي..

– هيا اخرجي من هنا..

– أنت متأكدة..

– نعم .. اخرجي..

– سأخرج يا آسيا.. و لكنك عندما ستفهمين ستقدرين.. انتبهي على نفسك..

تغلق آسيا الباب على نفسها لتسقط في بحر من الدموع و الحيرة و الشك..

***

أمعقول ما يحدث لي؟! .. لماذا أنا بالذات؟! .. كنت أحيا حياة هادئة.. و تمردت عليها حتى فقدتها.. و الآن أنا تائهة حائرة.. بلا أرض.. بلا وطن.. ما أبشعه من شعور! .. سأعيش كالغريبة هنا.. ليس لي أصل.. ما أقساك أيتها الغربة! .. كنت أظن أنه في سفري حريتي.. و لكني أعاني مجددا اليتم.. و هو أشد علي هذه المرة.. فقد أمسيت يتيمة الوطن.. لقد لفظني وطني.. إني أكره كل شيء في.. أنا لم أفعل شيئا حتى أعاقب كل هذا العقاب الذي لم يخطر في بالي يوما.. كل ما تمنيته أن أغير حياتي.. و أن أعيش الحياة التي تروقني.. فهل في هذا ذنب جنيته؟! .. هل أنا حمقاء إلى هذه الدرجة أني فكرت في أن أصنع قدري كما يروقني؟! .. السعادة دائما عمرها قصير.. أقصر مما نتخيل.. إنها مجرد وهم ليس أكثر.. إن التعاسة من نصيب البشرية.. و الحزن هو الجزء الأكبر من تكويننا.. و مع ذلك نلهث وراء الأوهام.. و نتمسك بالظنون الواهية.. خسارة أيتها السعادة.. كنت أظن أننا سويا سنخلق أرضا جديدة نسكن عليها.. و نتبادل فيها الأدوار.. و لكنك خذلتني.. و ألقيت بي من أعلى عليين.. و أعدك أني لن أفرح ثانية.. و ما هو الفرح؟!..

***

يأتي جاسر إلى جناح آسيا.. فيجدها ترتب حقيبتها.. يحاول أن يأخذها بين ذراعيه.. و لكنها ترفض.. و تبعده عنها في حركة عصبية.. و تنظر إليه بحدة.. و دموع من عينيها تنزل على خديها.. ثم تخبره:

– لن أغفر لك أبدا..

– آسيا أنت لم تسمعي مني كما ينبغي..

– يكفيني ما سمعت..

– لا يا حبيبتي.. لا يكفي.. فلدي المزيد..

– انتهى الكلام بيننا.. سأترك المكان لك.. و أرحل بعيدا..

– إلى أين؟!..

– لا شأن لك.. إنه أمر يخصني وحدي.. و لا شأن لك بي..

– آسيا .. مازلت لا تفهمين..

– لا أريد أن أفهم.. أريد أن تخرج من حياتي فقط..

– أرجوك آسيا.. إن الذي يعرفك لا يمكن أن ينساك.. و إلا لما عدت إليك..

– و هو الذي يحيرني معه.. لماذا عدت؟! .. لتبكيني..

– لا و الله .. دموعك هذي أغلي علي من روحي..

– هل تعلم ماذا فعلت بي؟! .. لقد جعلتني خائنة.. أنا امرأة خائنة.. منبوذة من وطني..

– يمكنني أن أصلح كل شيء.. إن الأمر بيدي..

– إن الجرح الذي أحدثته بقلبي صعب أن يداوى.. صدمت فيك.. أعذرك لأنك لم تعرف حجم الثقة التي وضعتها فيك..

– بل أعلم جيدا.. و أعدك ألا تندمين.. لكن أعطني الفرصة لكي أثبت لك.. آسيا إنها فرصتنا الأخيرة.. لو ضعنا من بعضنا هذه المرة ربما لا نلتقي ثانية.. فاهدئي رجاء.. و اسمعيني..

***

مالك يتصل على آسيا.. و يرجوها أن تسمعه.. لأن لديه الكثير لكي يخبرها به.. و هى تنصت له.. و في قلبها حسرة ما و عدم تصديق.. و هى التي عاشت عمرها كله تظن أنه عمها.. و فجأة ينقلب الحال و لا يصبح عمها.. و يصبح رجلا آخرا لا تعرفه..

مالك: رجاء آسيا اسمعيني..

آسيا: صامتة تبدو في حالة ذهول..

مالك: أعرف أنك مصدومة.. و لكن هناك أشياء خارجة عن إرادتنا.. تجبرنا عليها الظروف.. و لقد أجبرتني الظروف على أن أحبك من بعيد.. و لا أجرؤ على أن أصارحك..

آسيا: كثيرا ما عذبتني معك.. كيف أنسى نظرات الشك التي كنت تقتلني بها؟! .. و أنا لا أدري سببها.. هل تدرك ما الذي فعلته بي؟!..

مالك: سامحيني يا آسيا.. عندما تعلمين ستقدرين حجم المعاناة التي عانيتها .. لست وحدك من تعذبت..

آسيا: الكل يطلب مني أن أسامحه.. لقد جعلتم مني امرأة خائنة.. لا ذنب لها إلا أنها أحبت..

مالك: لقد أسأت الاختيار يا آسيا.. أحببت الشخص الخطأ.. و هو ما وضعنا في هذا المأزق..

آسيا: لم أكن أعرف.. و لم أكن يوما خائنة..

مالك: أعلم ذلك جيدا.. لا تخافي يا حبيبتي..

آسيا: لماذا تركتني أسافر و أنت تعلم أني في خطر؟!..

مالك: من أجلك يا آسيا..

آسيا: من أجلي أم من أجل نفسك؟!..

مالك: لا تظلميني يا آسيا..

آسيا: انتهى الأمر يا عمي مالك.. لن أعود ثانية..

مالك: لست بعمك.. و ستعودين..

آسيا: مازلت مغرورا.. كل ما يؤثر في نفسي.. جدي و جدتي..

مالك: إنهما يشتاقان إليك..

آسيا: و لكنهما اشتركا في اللعبة علي..

مالك: لا يا آسيا.. إنهما يحبانك حبا حقيقيا.. و لكن اللعبة قضت بأن يشترك فيها الجميع رغما عنهم..

آسيا: ربما..

مالك: ستعودين..

آسيا: اتركني لأهدأ .. رجاء لا تضغط علي..

مالك: لك ما تشاءين.. و اعلمي أني هنا من أجلك.. لا تخافي شيئا..

آسيا: سأحاول ألا أخاف شيئا.. و لا أخفيك.. إني خائفة أكثر مما تتخيل.. سلام..

***

تعود آسيا إلى جاسر ثانية ليكملا حوارحهما.. بداخلها شيء يخبرها بأن تنصت له.. تكاد لا تصدق أنها تعرضت لمثل هذه الخديعة.. كادت أن تكون لعبة بين يديه ضد بلدها.. و لكنه لم يكمل اللعبة.. تحتاج أن تفهم منه.. و أن يحكي لها الكثير.. و يخبرها عن سر تراجعه.. ربما يكون أيضا من أجلها.. ألا يستحق أن تغفر له و تسامحه.. إنها تشعر بوحدة قاسية.. و تحتاج رجلا مثله في حياتها ليعوضها..

جاسر: أرجوك اسمعيني.. بالله عليك..

آسيا: ليس المهم أن أسمعك.. المهم أن أقتنع بما ستقوله.. و ليس لدي ما يقنعني بأن أخون..

جاسر: آسيا.. إن حبك غيرني.. ثقي في يا آسيا..

آسيا: من أنت؟! .. حقا أريد أن أعرف من أنت؟!..

جاسر: سأحكي لك.. و لكن أرجو أن تسمعيني بقلبك.. و بعدها لك الاختيار..

***

إن حكايتي معك بدأت من زمن بعيد.. منذ أن التقيتك في عهدنا الأول.. و لمست فيك الشيء الذي أفقده في نفسي.. أحسست وقتها بأنك هذا الشيء الذي ينقصني..

أولا عليك أن تعرفي أني ولدت يتيما.. ليس لي عم أو خال.. ليس لي عائلة.. تربيت في مدرسة داخلية.. و أكثر ما ربته في هو قساوة القلب و تبلد الإحساس.. كانت القواعد صارمة.. انتزعت من كياني أي مشاعر يمكنني أن أكنها لأحد.. فتشابهت علي الأوجه.. و اختلطت لدي الملامح.. و لم أعد أرى شيئا جميلا في حياتي.. و نضجت كصبي يسابق الزمن بوسامته و جاذبيته و ذكائه.. و بعدها قررت أن أهجر الأرض.. و أترك المكان.. فليس هناك صلة ما تربطني به غير أشباح تشدني إلى الماضي.. و أفكار تهجم علي و تهد من حيلي.. فعزمت أمري على أن أرحل.. و سافرت إلى أكثر من بلد.. و اشتغلت في أعمال كثيرة.. منها الحقير و منها الأصيل.. و كلما كبرت زادت وسامتي.. و ازددت جاذبية.. و كم من امرأة تودت إلي.. و كان لي علاقات نسائية كثيرة..

أحبتني امرأة عربية حبا جما.. و ارتبطت بي فترة من الوقت.. استطاعت خلالها أن تلمس مدى ذكائي و دهائي.. خاصة أني قمت ببعض الأعمال الخطيرة.. و كنت أكسب الكثير بفضل أعمالي هذه.. كل ما يخطر على بالك و ما لا يخطر..

هذه المرأة العربية أثرت في كثيرا بجمالها و دلالها و جاذبيتها.. كانت تشع فتنة.. تعلقت بها.. و اتخذت منها سكنا.. كانت غامضة مثلي.. فيها كثير مني.. تشبهني في بعض ملامحي.. في نمط تفكيري.. كانت يتيمة مثلي.. و تربت في ملجأ أيضا.. تعلقت بي حد الجنون.. و رغم ارتباطي الشديد بها لم نتزوج.. اكتفينا بأن نعيش مع بعضنا دون زواج و كنا راضيين.. و لا أعرف ما الذي جعلنا نرتضي مثل هذه الحالة؟! .. رغم أنه كان في إمكاننا أن نتزوج.. كانت تسهر على راحتي.. تعتني بي اعتناء خاصا.. تحرص على تعليمي بعض الفنون الراقية لتجعل مني سيد مجتمع.. إذ كانت تسيطر علي أفعال همجية وقتها.. كنت أتمرد لأبسط الأشياء.. و أتعصب و أعاند و أبالغ في مواقفي.. كنت كحمار وحشي يحتاج إلى من يروضه.. كحصان جامح يرفض أن يمتطيه أحد.. هى بمهارة فائقة عرفت كيف ترودني.. و تهذب كثيرا من أخلاقي..

و بعدها عرفتني بتنظيم خطير.. يتخصص في أعمال إرهابية خطيرة في مقابل مبالغ طائلة.. و استطعت أن أتفوق في هذا التنظيم حتى كسبت الكثير.. و استثمرت مالي.. و جنيت أموالا كثيرة.. جعلتني امبراطورا بما لدي من إمكانيات.. و أصبحت الرجل الثاني في التنظيم..

آسيا: و هى .. المرأة؟!..

ظلت معي.. إلى الوقت الذي التقينا فيه.. من ذلك الزمن البعيد.. عندما كنت صبية لم تتجاوزي سن الصبا.. أسند إلي عمل من أعمال التنظيم.. أرادوا أن يغرسوني في بلدك.. للإلمام بكل ما هو كبير و صغير عن أمور البلاد.. تمهيدا لحدوث حدث عظيم في فترة مقبلة.. و لكي أضمن وجودي دون أدنى شك في.. خاصة أني معروف لدى بعض الدول الأخرى.. و من السهل أن يستدلوا على أمري.. كان لابد أن أغير من شكلي قليلا.. و أن أرتبط بفتاة تمكني من البقاء في البلد دون أن يشك في أحد.. و بدأت أبحث في الفتيات اللاتي كن يتوددن لي عن فتاة مناسبة و لكني لم أجدها.. و كان علي أن أختار.. و احترت كثيرا.. حتى ظهرت أنت.. و أحسست أنك الفتاة المناسبة التي أبحث عنها.. و

لكن.. لا أدري ما أقوله.. أحببتك.. نعم أحببتك.. و وجدت في إخلاصك لي ما يجعلني أراجع نفسي..

آسيا: و الأخرى؟!..

جاسر: حبي لك جعلني أوقن تماما أن الذي كان بيني و بينها ليس هو الحب الذي أنشده.. ربما كان مجرد احتياج ليس أكثر.. أو لأنها كانت المرأة الأولى في حياتي فأثرت في كثيرا.. ربما شعوري أني لم أكن الرجل الأول في حياتها أو حتى الأوحد.. فيك شيء يختلف عنها.. صدقا لا أدري ما هو.. شعور خاص بك أنت وحدك..

و لكن القدر لم يمهلني.. تعرف علي عمك مالك.. و دار بيننا حوار عنيف.. حذرني فيه.. و أنذرني.. و جعلني ألملم حالي.. و أخرج من البلد مطرودا.. و وضعت على قائمة الممنوعين من الدخول إلى مصر.. حاولت أن أجعله يفهم أني تغيرت من أجلك.. و لكنه لا يسمع أي شيء في أمر يخصك .. و أنت تعلمين كم هو عنيد..

وقتها .. و بعد جدال منهك بيني و بين .. مالك كل ما أهمني أن أقابلك.. و أشرح لك الأمر.. لتغفري لي.. و لكن مالك أحال دون ذلك.. و صرخ في:

– آسيا ليست لك و لن تكون..

قلت له:

– أرجوك أريد أن أراها .. أريد أن أخبرها بجملة واحدة..

و لكنه رفض بإصرار.. أصابني بإحباط شديد.. أول مرة في حياتي أعرف معنى اليأس.. لملمت أغراضي و رحلت.. و لم أنس صورتك.. وضعتها بين حاجاتي.. كان لدي إحساس بأني سأعود إليك ثانية.. سأعود لنلتقي.. و ظل حنينك في قلبي لم يفارقه.. و لكي أستعيدك كان علي أن أكون أقوى من الأول.. أن أكون أقوى من أي شيء آخر.. يمكنه أن يعترضني و يبعدك عني.. وضعت نصب عيني

هدف واحد.. و هو أن أستعيدك.. و لكن الأمر كان صعبا.. و لكي أطوع الأمر لصالحي.. كان علي أن أكون أقوى من في التنظيم.. و أن أمتلك المال الذي يمكنه أن ييسر لي الأمر.. فقد لاحظت أن غالبية من يشتركون في هذه اللعبة القذرة.. يكون هدفهم الأول و الأخير هو المال.. المقابل المادي كل ما يهمهم.. و لكي أضمن ولاءهم لي.. و حتى يمكنني أن أدير اللعبة كما يروقني.. غرقتهم بالمال حتى أصبحوا من الأثرياء.. و جعلتهم يدورون في فلكي.. أقنعتهم بأني لدي المزيد.. و أن القضية ليست قضية مال.. فالمال يمكنه أن يضيع بسهولة.. و لكن القضية التي أقنعتهم بها.. هي كيف لهم أن يجمعوا المال.. و أن يحتفظوا به..

إنهم يشعرون بأن وجودك في حياتي يهدد حياتهم.. و لذلك فهم يستهدفونك.. و لقد أقسمت بيني و بين نفسي أن أخرجك من هذه اللعبة القذرة كما أدخلتك فيها.. و لكن الأمر أخذ مني وقتا و مجهودا.. و في كل مرة أكاد أن أتخلص منهم.. و أبعدهم عن اللعبة.. أجدهم يمكرون و يصرون على أن أخرجك من حياتي و إلا يقتلوك.. و هو ما أبعدني عنك هذا العمر.. و للأسف رغم أني تمكنت من استردادك إلا أن الخطر مازال موجودا.. و سيظل طالما أنهم على قيد الحياة.. و لذلك لابد لهم أن يختفوا من على وجه الأرض.. فالأرض التي تحملنا لا يمكن أن تحملهم.. فالغدر و الخيانة و الجشع لا يلتقي يوما مع النبل و الوفاء و الأصالة.. لابد و أن أكون أنا الرجل الأول.. هذا هو الحل الوحيد الذي سيخلصك منهم..

– من هم؟! .. عمن تتكلم؟! .. لقد أقحمتني في أمور.. لا ذنب لي فيها.. بالله عليك.. لا تخبرني بأنه عاقبة حبي لك.. لا أصدق..

– بالله عليك أنت لا تقولي هذا..

– و المرأة؟!..

– أخرجتها من حياتي..

– كيف؟!..

– بعد أن تذوقت حبك.. فقدت إحساسي بأي امرأة أخرى.. حاولنا و لكن فشلنا .. كنت أنت دائما بيننا.. و بعد أن تركتني وضعت صورتك مكانها.. لتستحوذ علي.. و تنسيني أي امرأة أخرى غيرك.. لا أخفيك دخلت بعض النساء إلى حياتي.. صورتك كانت دائما بيني و بينهن..

– أحتاج أن أفكر في الأمر.. أتتركني وقتا؟!..

– نعم.. و لن أضغط عليك.. و إذا احتجت أن تكلميني فأنا موجود..

– و هو كذلك..

– لا تجعليني أقلق عليك.. رجاء..

– سأحاول..

– تصبحين على خير..

***

جاسر في سيارته.. يجول الطرقات.. يستمع إلى أغنية علمني حبك سيدتي.. و يفكر في آسيا.. يشعر بحزن عميق.. و خوف دفين.. إنها أصبحت له كل شيء.. و لا يمكنه أن يفقدها ثانية.. لأن في هذه المرة يعرف أنه لن يستعيدها.. و قد أيقن تماما في قرارة نفسه.. أنه لن يقوى على العيش بدونها.. يخشى أن يأخذها منه مالك أو غيره.. و لكنه أحبها أكثر منه.. و من أي شخص آخر يمكنه أن يحبها.. إنه أولى بها منهم.. إنه يريدها بكل ما لديه من قوة.. إنها بالنسبة له حياة .. وطن.. هوية .. إنها تعني له الكينونة.. إنه بدونها قد يموت.. أو تهلكه جوارحه من أجلها.. و ينسى نفسه حد الذهول.. و الجنون.. هائما على وجهه.. ينادي بأعلى ما عنده من إحساس:

– آسيا.. آسيا.. آسيا..

لا أدري ما هذه الصلة القوية التي تربطني بك؟! .. ليتني أدرك هذا الخيط الرفيع الذي يشدني إليك.. لماذا دائما أجد فيك شيئا غائبا في نفسي؟! .. كأنك تكمليني.. أو أنك تسدين هذا الفراغ العميق الذي أحسه.. دائما ما أشعر أني أحتاج إلى شيء.. تنقصني حاجة مهمة.. يمزقني حنين مجهول.. كل هذه الأحاسيس تختفي في وجودك.. بمجرد أن أفكر فيك.. أو أستحضر صورتك في ذهني.. أول مرة لي فيها أؤمن بقيمة العذاب في الحب.. بأن الحب بلا عذاب ينقصه الكثير.. إن حبك علمني كيف أتعذب.. و قد وجدت نفسي في عذابك.. و في حبك.. و في حنينك..

لم تغيبي عني أبدا يا حبيبتي.. فأنت دائمة الحضور بين أفكاري.. أسكن في بيتي فقط.. لألقاك هناك بين جوانبه.. أختلي بك في الشرفة.. لنطل على نهر الحب الذي طالما حدثتني عنه.. و عن عشقك للأفلام القديمة.. و كيف أنها أثرت فيك؟! .. كيف تربيت عليها؟! .. و كيف تعلمت منها الحب و أخذت عنها الأصالة؟! .. نعم كل ما هو فيك أصيل.. يشبه تلك الحياة القديمة التي نبحث عنها بين صفحات الكتب.. كنت رجلا جافا.. و منذ فراقك و أنا ألهث بين صفحات الكتب القديمة.. لألتقي بك كما عودتني على قراءة كتاب قديم.. قلت لي وقتها:

– إن قراءة مثل هذه الكتب تعود بنا إلى الزمن الجميل.. لنستمد منه بقاءنا في هذا الواقع المؤلم..

لم تتركي لي غير الوفاء.. عزائي الوحيد في غيابك.. و ظللت محتفظا بذاك الكتاب الذي كنت تقرأين لي منه.. كتاب مازالت رائحة عطرك عالقة به.. أحتضن الكتاب.. و أستنشق منه عبيرك.. لأستدعيك في مخيلتي كسراب جميل.. أدمنت وجوده.. و لا أقوى على العيش بدونه..

من أجلك يا آسيا حفرت نهرا في حديقة بيتي.. أجلس إليه كل مساء.. لا أرى فيه سوى صورتك الأخيرة.. صورة الدمع حبيس عينيك الناعستين.. تبكين شيئا في نفسك.. فأكثر ما شدني إليك هو هذا الحزن الدفين.. يسكن بين مقلتيك.. أقسمت بيني و بين نفسي أن أمحوه محوا من عينيك.. و أن أسقي تلك العينين مزيدا من السعادة..

قلت لك ساعتها:

– ما كل هذا الحزن الذي بداخلك يا آسيا؟!..

فأجبتني بصوت مخنوق:

– أخشى من حجم هذه السعادة التي أحياها بين يديك..

مسحت بأناملي على شعرك و قلت لك:

– و كيف لي أن أعيش في هذه الدنيا كرجل و بداخلك كل هذا الخوف؟! .. أنت هكذا تقتلين رجولتي.. تطعنين في شرف حبي لك.. لا أستحق الحياة يوما إن لم يكن بمقدوري أن أحمل هذا الخوف عنك.. و ألقي به بعيدا في مهب الريح..

لا يمكنني أبدا أن أنسى حواراتنا .. يمكنك أن تقولي:

– إني أنسج منها ليالي التعيسة بدونك .. و عمري الذي يبحث عنك في كل عبارة قلناها في نفس واحد.. و ضحكنا على توارد أفكارنا..

و لذلك وجب علي أن أنهي هذه المهزلة.. مهزلة ضياعك من وطنك.. و ضياع وطنك منك.. لن تكوني إلا كما تريدين يا آسيا.. و هذا عهدي لك مهما كلفني الأمر..

***

جاسر يتصل على مالك.. يرغب بشدة أن ينهي الأمر.. لتعود إليه آسيا.. حتى يمكنها أن تسامحه.. و تغفرله ذنبه معها.. إنه عاد ليتوجها سيدة نساء العالمين.. لا لأن يجعلها تشعر بالخزي و العار.. إنه اكتفى من الحياة الدنيا.. و من لهوها و عبثه فيها.. و يحتاج إلى أن يستقر.. و أن يجد الحضن الذي يعود إليه كلما ضاقت به نفسه.. يحتاج إلى آسيا لتمسح على شعره.. و تربت على كتفه.. لتمنحه الأمن و الأمان.. ليخلد إليها.. ليسكن إليها في مودة و طمأنينة..

مالك: أنتظرك.. كنت أعرف أنك ستتصل..

جاسر: هل تسمعني هذه المرة؟!..

مالك: من أجل آسيا.. أسمعك..

جاسر: ما الذي غيرك؟!..

مالك: كل شيء يهون من أجل آسيا..

جاسر: مازلت تحبها..

مالك: و سأظل..

جاسر: تخشى أن تفقدها..

مالك: لن أفقدها.. سيظل لها مكانة في نفسي..

جاسر: أراك تغيرت..

مالك: هات ما عندك..

جاسر: أريد أن أكفر عن ذنبي من ناحية آسيا..

مالك: كيف؟!..

جاسر: سأضع على مائدتكم الخطة بأكملها.. و أضع معها الخطة المضادة لها.. أنت تعلم أننا في كل عام ننفذ جزءا من المخطط..

مالك: كم جزء نفذتم؟!..

جاسر: أعتقد أنك تعلم..

مالك: و البقية..

جاسر: البقية ستعلمها عندما ترى الرسم التخطيطي لخطتنا.. أما الخطة المضادة فهديتي لكم.. سأعمل عليها ليبدو الأمر منطقيا.. و لأظهركم في أفضل حال.. و كأنكم من تتصدون للأمر..

مالك: و المقابل؟!..

جاسر: لا شيء .. سوى..

مالك: سوى!!..

جاسر: أن تمنحوني شرف صداقتكم..

مالك: و هو كذلك.. و آسيا؟!..

جاسر: عندما ترى ما قدمته من أجلها ستقدر ذلك و حتما ستسامحني..

مالك: و ما الذي يضمن لنا أنها ليست بحيلة منك.. و أنك تنوي الغدر..؟!..

جاسر: السبب بسيط جدا.. و أعتقد أنك تلمسه في نفسك..

مالك: ألا و هو؟!..

جاسر: الحب!! .. الحب يا عزيزي.. يصنع المعجزات..

مالك: نعم.. إنه الحب.. حب آسيا..

جاسر: و ما أدراك و ما حب آسيا!..

يغلقان الخط و تنقسم الصورة بينهما ليهمس الاثنان:

- آسيا و ستظل آسيا..

***

يجتمع جاسر مع أعضاء التنظيم.. و يجلسون في قاعة الاجتماعات التي أعدها جاسر في فندقه لاستقبالهم.. و لم ينس جاسر أن يضع أمام كل واحد منهم زجاجة من النبيذ الفاخر الذي صنعه خصيصا لهم في مصنعه.. و وضع زجاجة أمامه.. تشبه كثيرا هذه الزجاجات التي وضعها عند كل عضو.. و لم يلحظ أحد منهم هذا الاختلاف.. فكان تركيزهم منصبا على سماع الخطة الجديدة التي وضعها جاسر.. اعتقادا منهم بأنهم سيستعيدون مجدهم الذي تراجع بعد أن أحب جاسر آسيا.. و غيرت نظرته للحياة..

الرجل الأخطبوط تحول إلى حمل وديع.. و كل هذا من أجل امرأة.. الرجل الذي ركعت له أجمل النساء و أشدهن إثارة.. يخضع الآن لامرأة.. و يغير من أجلها كل القوانين..

و لكن جاسر كان يضع خطة أخرى أخذ ينفذها بمفرده.. فقد كان على يقين بأنه عليه أن يتخلص من هؤلاء الرجال لكي تنجو آسيا من حقدهم.. فاختار أن يتخلص منهم بطريقة ابتكرها هو.. لن يتمكنوا من اكتشافها إلا بعد فوات الأوان.. فقد وضع لهم في النبيذ نوعا من السم البطئ الذي يقتل تدريجيا دون أن يشعر به صاحبه.. و فجأة يصاب بسكتة قلبية إثر تجلط الدم.. و هكذا بعد بضعة أشهر يكون قد تخلص جاسر منهم كلهم.. و يصبح هو الرجل الأول.. يهابه الآخرون.. و يعملون له ألف حساب.. عندما يعلمون أنه قادر على أن يتخلص منهم دون أن يعرفوا الطريقة.. فيظلوا حائرين يتساءلون دون أن يصلوا إلى شيء.. و يظل جاسر لغزا غامضا.. إذا حاولوا فك طلاسمه.. أصابهم سهمه بجراح تنزف.. و لا يمكن لأحد أن يوقف نزيفها غيره..

لهذا النبيذ مذاق خاص.. كلما تذوقته قلت في نفسك:

- هل من مزيد؟!..

و دون أن تدري تجد نفسك تصب منه كأسا فكأسا فكأسا.. و هكذا إلى أن تفرغ الزجاجة.. لتبحث عن زجاجة أخرى بنكهة أخرى.. و مع كل زجاجة تدخل عالما مختلفا.. يختلف عن الواقع الذي أنت فيه.. و تدريجيا ينسيك أشياءك و اهتماماتك الدنيوية.. و مع كل كأس منه تفقد تدريجيا ذاكرتك.. إلى

أن تهيم على وجهك.. لا تدري ما الذي تحسه.. و لا الذي تقوله.. كل ما يصدر منك هو بعض هلوسات تدل على أنك مجنون.. فاقد لكل المعاني التي تنسبك إلى العقل.. و بعدها يتوقف نبضك عن الدق.. و يعلن قلبك انتهاء حياته..

و يظل جاسر هذا الرجل.. ذو الدهاء الشديد.. الذي لا يغلبه شيء.. فهو يملك زمام الأمور بكل تفاصيلها.. و من أجل ذلك استطاع أن يكون هو الرجل الأول..

***

إيمان جالسة في جناحها بالفندق.. تعاني أزمة نفسية.. فمنذ أن دخلت اللعبة.. و قد دفعت الثمن غاليا.. و ما دخلتها إلا من أجله.. من أجل مالك.. لتقربها منه أكثر.. و كلما اقتربت منه كلما شعرت بطعنة في قلبها اسمها حبه لآسيا.. أخرجت من حقيبتها الخاصة بعض الصور التي تجمعها هى و مالك.. و أخذت تتأملها بابتسامة ممزوجة بالدموع.. تحدث نفسها بصوت مخنوق:

– إن لم يكن ما بيننا هو الحب.. فماذا يمكنه أن يكون؟! .. ماذا يكون هذا الشيء الذي اجتمعنا عليه؟! .. لقد غامرنا سويا.. و جلسنا كثيرا في شقتنا التي أعددتها من أجلنا.. كم تبادلنا فيها من ابتسامات! .. كم التهمنا فيها من أطعمة! .. و كم شربنا من كأسينا! .. كان ينظر لي نظرة يملؤها الاعجاب كلما ارتديت له زي سهرة.. و استعرضت نفسي أمامه كعارضة أزياء.. ترغب في أن تنال رضا الجمهور.. و لم يكن لي جمهور سواه.. كان يصفق لي بحرارة.. و يغمز لي بعينه.. و يعض على شفتيه.. دللني حد الثمالة.. حتى غرقت معه في عناق.. خال لي أنه العناق الأبدي.. الذي تتوقف عنده كل الأزمنة..

كنت أعد له كل شيء يحتاج إليه في جلستنا.. فأنا أعرف أنه يهوى تدخين السيجار.. كنت أحرص على أن أحضرها له مع قطع حلوى المارشيملو.. و مشروب جوز الهند الأبيض..

كان دائما ما يقول لي:

– أهوى اهتمامك بي على هذا النحو.. أتعرفين أني لا أجد نفسي إلا هنا؟! .. في شقتنا.. حيث أنتمي.. حيث أزيح عن نفسي كل ما يثقلني.. و أهرب و لو قليلا من حب آسيا..

و ما كان يدري بأن كلماته هذه كانت تمزقني.. و تطعن في قلبي ألف دقة و دقة له.. لأئن طول الليل بعد رحيله.. وحيدة مغلوبة على أمري.. لا أملك إلا أن أخلد إلى سريري.. أحضن وسادتي.. لعل النوم يأخذني من عذابي في حبه..

كيف لي أن أسلاه أو أطوي صفحته من حياتي؟! .. و هل مثله يمكن أن ينسى بكل تفاصيله التي تذهلني معها؟! .. هل أنسى مداعباته لي و نحن نرقص رقصتنا المعهودة على أنغام موسيقا مقطوعة فريد الأطرش الربيع؟! .. لكم كان يحب فريد الأطرش في هذه الأغنية.. و لكم أحببت الأغنية من أجله.. إلى أن أدمنتها.. و صارت لي منهج حياة.. كلما كنت أشتاق إليه في غيابه عني و طول هجره.. أستمع إلى الأغنية.. و أتخيله معي يراقصني.. و أظل أدور في المكان.. أسرح بعيدا.. تأخذني بقايا عطره التي استوطنت المكان إلى عالم آخر من أجمل العوالم المحببة إلى نفسي..

في مرة دخل علي و أنا أرقص وحيدة.. و أبتسم له.. و أحدثه بهمس مسموع.. ظل يراقبني فترة من الوقت.. لم يشأ أن يقطع علي خلوتي في رقصي معه.. إلى أن انتهت الأغنية.. و أنا أتخيله و هو يصفق لي.. و أنا أقدم له تحيتي الخاصة.. و إذا بي أسمع تصفيقا حقيقيا.. لألتفت ورائي.. و أجده واقفا يحدق بي.. و في عينيه نظرة إعجاب.. أشعر معها بالخجل.. ثم يحدثني بكلماته الرقيقة قائلا:

– لو أنك لم تكوني تعملين معنا لاقترحت عليك أن تكوني فنانة..

سألته متعجبة:

– فنانة؟!..

– نعم .. راقصة باليه مثلا..

قلت له بابتسامة خجولة:

- لا تبالغ..

- لا أبالغ.. ثم غمز لي بعينه..

تأملته و كأني أتأمل ممثلي المفضل عبر شاشة التلفاز..

دخل إلى الحمام ليغتسل.. كان يبدو منهكا.. ملامح وجهه تبدو مرهقة.. ربما من كثرة التفكير.. ربما من قلة النوم.. لا أدري بالضبط.. و لكن طالما أنه جاء إلى هنا.. إلى شقته الخاصة.. فهذا يعني أنه يحتاج إلى الراحة.. راحة بعد عناء..

خرج بعد أن أخذ حمامه.. كان يبدو فاتنا بشعره المتناثر فوق جبينه.. و قطرات المياه تتساقط على وجهه.. جلس على الكرسي الكبير الذي يجاور المدفأة المطفأة.. ألقى بنفسه على المقعد بقوة ثم تأوه بصوت عال.. و أصدر تنهيدة طويلة.. كأنه يطرد حملا ثقيلا.. كأن الحمام الدافئ خلصه من كل أعبائه.. قلت له:

- تبدو أنيقا..

فابتسم لي في برود و لم يهتم لي.. نظر بعيدا.. و استغرق وقتا في نظرته..

اقتربت منه.. و جلست بجانبه على طرف الكرسي.. و مسحت على رأسه.. و دسست أنفي في شعره.. أستنشق رائحته الجذابة.. و أغمض عيني على رائحته العطرة.. ثم همست في أذنه:

- ما بك؟!..

فأجابني بصوت خافت:

- متعب أنا..

- شعرت بحزن عميق في نفسي.. و قبلت جبينه الندي.. و قلت له:

– لا عليك .. فلتهدأ قليلا من تعبك..

ألقى برأسه على صدري.. ثم دس وجهه بين أضلعي.. يختبئ من تعبه.. و راح في غفوة من الزمن.. تمنيت من الله ألا تنتهي..

***

تفيق إيمان من عالمها المسحور الذي يجمعها بمالك على صوت نغمة الربيع على هاتفها.. لتدرك أنه مالك.. تفرح.. و تحدث نفسها.. ربما أنه شعر بها.. و أحس بحالها.. من أجل هذا يتصل عليها..

إيمان بصوتها المبحوح:

– مالك..

– إيمان .. أين أنت؟!..

– هل انشغلت علي؟!..

– لقد اختفيت..

– احتجت إلى أن أنفرد بنفسي..

– فيك شيء متغير.. ما بك؟!..

– لا شيء.. لا تشغل بالك..

– أشكرك أنك لم تتخلي عن آسيا..

– و كيف لي أن أتخلى عنها؟!..

– هل حدثتك ثانية؟!..

– لا .. لم نتحدث ثانية..

– ماذا ستفعلين؟!..

– أنتظر أوامرك..

– إيمان.. بالله عليك.. لا تتركيها..

– شرحت لها الموقف.. و أتمنى أن تقدر..

– لابد و أن ترجع معك.. أتعدينني إيمان؟!..

– أعدك يا مالك..

– لا نريد أن نفقدها..

– و هو كذلك..

– أبلغيني بالأخبار أول بأول..

إيمان تحدث نفسها بقلب منفطر:

معك حق يا مالك.. لن ندع آسيا تضيع منا.. الموضوع أكبر مني و منك.. ليس لها ذنب في شيء.. نحن من أقحمناها في الأمر.. من حقها أن تعود إلى بلدها.. و لا تظل شريدة هكذا في بلد آخر.. ربما في رجوعها ضياعك مني.. أخشى بعد أن علمت أنك ليس عمها تتعلق بك أكثر.. فكم من مرة لمحت عليها حبا لك و غيرة عليك.. كان أشبه بحب الحبيبة لحبيبها.. و غيرة المحبة على حبيبها من النساء اللاتي يحطن به.. استشعرت أنها تغار مني عليك.. و لم أفطن إذا كانت تستشعر بأنك ليس بعمها.. أو أنها مشاعرها اللاواعية هى التي كانت تتصرف على هذا النحو.. أو أنها جاذبيتك يا مالك التي جعلتها تتمنى ألا تكون عمها.. لتهيم في حبك..

***

أتذكر في ليلة خريفية ماطرة.. هاتفتني آسيا و الكلام يختنق في حلقها.. فأصابني جزع عليها.. أخبرتني أنها تريد أن تخرج قليلا.. و أنها تحتاجني معها.. ما أمكنني أن أتخلى عنها.. خرجت إليها.. وجدتها تنتظرني في شرفتها.. تتأمل شرفة جاسر المغلقة.. و تبدو في حالة من الذهول.. كانت قطرات المطر تتساقط.. ناديت عليها:

– آسيا.. آسيا..

انتبهت لصوت ندائي.. و نظرت لي.. ثم هزت رأسها تخبرني بأنها قادمة إلي.. لم أنتظرها طويلا.. آتت تمشي على عجلة.. و في غفلة مني ارتمت في حضني تبكي.. و يختنق صوت بكائها.. وجدتني أحيطها بذراعي و أمسح على ظهرها.. وضعت ذراعي على كتفها.. و مشينا ببطء إلى شاطئ النيل.. كانت تحدثني و هى تبكي بحسرة على ضياع عزيز.. قالت لي:

– أرأيت يا إيمان أرأيت؟! .. لقد عدت يتيمة ثانية..

– لماذا يا آسيا لماذا؟! .. بالله عليك لا تقولي هذا..

– في ليلة تشبه هذه الليلة فقدت والدي ..

ثم تجهش ببكاء عال.. أثار انتباه قليل من المارة الذين يعبروننا.. قلت لها و قلبي يعتصر حزنا عليها:

– ما الذي حدث؟!..

– لقد رحل .. لقد رحل..

و بغباء مصطنع سألتها:

– من الذي رحل؟!..

– قالت لي و الحسرة تملأها:

– جاسر .. لقد رحل .. تركني و رحل..

و إذا بها تنهار على ركبتيها.. تبكي بحرقة و لوعة.. بشكل مزق قلبي معه.. و جلست إليها.. أرفع رأسها إلي.. و أقول لها:

– هوني على نفسك يا آسيا .. لا أحد يستحق بكاءك على هذا النحو..

احتدت علي بشكل لم أعهده فيها.. و صرخت في وجهي:

– بل يستحق .. جاسر يستحق..

و أخذت تبكي ثانية بحرقة الذي فقد عزيز.. و يقضي نحبه عليه.. اضطررت أن أجاريها.. لأجعلها تهدأ.. قلت لها:

– أنا آسفة يا آسيا .. ربما يستحق .. ربما..

مر بجانبنا رجل يرتدي لباسا غريبا.. يشبه لباس القوات الخاصة.. و اقترب منا.. و نظر إلى آسيا نظرة ذات معني.. ثم سألها بلكنة عربية:

– هل هناك أمر يزعجك سيدتي؟!..

رفعت آسيا رأسها إليه في إحراج.. و بصوت يكاد أن يسمع أجابته:

– شكرا .. لا عليك..

و أنا مشدوهة إليه.. أرتاب في أمره.. أتسائل في نفسي:

– من يكون هذا الرجل الغامض الذي ظهر على حين غفلة؟!..

كان ينظر إلى آسيا و هو يبتعد عنا ببطء.. و خال لي أنه ما ابتعد كثيرا.. كأنه موجود في مكان ما بالقرب منا يرقبنا.. عدت بنظري إلى آسيا.. و كانت قد هدأت قليلا من تشنجها.. قلت لها:

– آسيا حبيبتي .. لا أريد أن نلفت النظر رجاء..

أخذتها من يدها.. و مشيت بها.. و هى منساقة لي.. مسلوبة الإرادة.. لم يعد بها حياة لتقاوم.. و هو ما أقلقني معه.. أحسست و كأني أسحب جسدا بلا روح.. كانت خاوية لدرجة مرعبة.. أخافتني معها.. أخذتها إلى مقهى هادئ على شاطئ النيل.. و جلسنا نحتسي بعض القهوة.. كانت ترتعش من شدة ما بكت.. و كنت أرتعش من فجعتي عليها.. ملابسنا تبللت بماء المطر الذي انهمر بقوة..

قالت لي و هى تحتسي قهوتها غير مصدقة:

– جاسر رحل و تركني..

– هوني عليك يا آسيا..

– لا أدري كيف سأحتمل الحياة من بعده؟!..

– كل شيء يمر يا آسيا .. لا شيء يبقى على حاله..

– ليس لي غيره .. اعتبرته سندي..

– كيف تقولين هذا؟! .. أنسيت مالك؟! .. إنه سندك الحقيقي..

ابتسمت ابتسامة ممزوجة بمرارة و قالت:

– مالك .. ربما فقدته هو الآخر..

– لا يمكن..

– مالك يتفنن في تعذيبي يا إيمان..

– لا تقولي هذا..

– هل تعرفينه أكثر مني؟! .. أنا أقول لك:

– إنه يمقتني..

– محال.. ثقي في يا آسيا..

– و من أين لك بكل هذه الثقة؟! .. هل أخبرتني لأصدقك؟!..

– شيء بديهي.. إنه عمك كيف لا يحبك..

– لا يمكنني أن أحس صلة الدم هذه التي تربطني به.. أخبرك أمرا .. بت أشك في الأمر؟!..

سألتها بحذر:

– كيف؟!..

– لا أدري .. هناك شيء ما يخبرني بالأمر..

– بأي شيء يخبرك؟!..

– بأن مالك ليس عمي..

صمت من أثر المفاجأة.. سرحت هى بعيدا ثم قالت لي باستغراب:

– أتصدقين أنه نهرني على علاقتي بجاسر؟!..

– طبيعي .. يخاف عليك..

– من أي شيء يخاف؟!..

– آسيا .. هذه طبيعة الحياة في مجتمعنا الشرقي.. لا يوجد رجل شرقي لديه كرامة يقبل بهذا..

– ما كان في علاقتنا شيء يخجل؟!..

– و لو كنتما ملائكة نزلت على الأرض لن يتغير شيء.. هذه معتقدات لا يمكن تغييرها بسهولة..

– كنت أظنه أكثر تفتحا..

– يمكنه في أي شيء إلا هذا..

– لماذا؟!..

– نحن لا نعيش وحدنا يا آسيا.. نحن مشدودون إلى الآخرين بحبل اسمه العادات و التقاليد.. لا يصح أن ننفلت منه..

– مالك ليس من هذا النوع .. أنا أعرفه جيدا.. لذلك أقول لك ليس الأمر كما تتصورين..

– و ماذا بعد يا آسيا؟!..

– ليس هناك بعد .. رحل جاسر.. و ليصمت الجميع.. ليرتاحوا لتعاستي.. إذا كان هذا هو كل ما يملكون..

– لا تكوني قاسية..

– أليست هذه الحقيقة؟! .. علي أن أستتر من كلام الناس حتى ينسوني و ينسوا جاسر..

– لا أدري يا آسيا.. يعز علي أن تتواري عنهم.. و لكن لحين أن ينسوا.. لترتاحي..

– أرتاح؟!..

– نعم يا آسيا .. ستمضي الأيام.. و تأخذ ذكراك..

– دائما واثقة أنت يا إيمان.. أشكرك..

– على ماذا؟!..

– على وجودك في حياتي..

– أنا هنا دائما من أجلك..

– أعلم ذلك..

***

و منذ علمها هذا.. و قد عاهدت نفسي ألا أتخلى عنها أبدا.. مهما كلفني الأمر.. و عانيت فيه.. لقد اعتبرتها مسألة حياة.. آسيا بجمالها دائما ما تذكرني بملكات مصر قديما.. إنها تنتمي إليهم بشكل أو بآخر.. دائما ما يراودني هذا الإحساس كلما جلست إليها.. هى قطعة من الوطن.. إن فقدتها أكون فقدت شيئا غاليا..

كل شيء يهون في سبيل ألا تضيع منا أو نفقدها.. لابد لي و أن ألتزم شرف المهنة.. و ألا أطيح بها من أجل أنانيتي.. إذا حكمت الأقدار بأن تكون آسيا لمالك.. فلن أفسد عليهما ذلك بحماقتي.. لطالما آمنت بي. و لا يمكنني أن أخذلها.. فأشد ما تحتاجه آسيا في معاناتها هو إيمانها..

***

جاسر يطرق باب جناح إيمان.. تفتح له في كثير من الذهول.. لم تتوقع أبدا أن يحضر إليها.. إنها تخشى الاقتراب منه حتى لا تفتن به.. إنها تعرف مدى قوة سلاحه الذي يستخدمه مع نسائه.. فقد تابعته فترة من الوقت.. و كانت ترى سقوط النساء في شراكه.. و كيف ينجرفن إليه دون إرادة.. و كأنهن دخلن إلى عالم مسحور.. هو وحده من يملك فك طلاسمه..

تذكر أنه في علاقة نسائية له مع إحدى الحسناوات اللاتي يتوددن إليه.. و يفعلن المستحيل لكي يصبحن من نسائه.. لعلمهن بأنه أمر فارق معهن.. إن لديه قدرة خاصة على تتويجهن سيدات على عرش الأنوثة.. غير هذا الثراء الفاحش الذي يغدق به عليهن.. حتى يجعل منهن ملكات في مملكته..

إنه يهتم لأصغر الأمور.. كأن يحرص أن يهدي امرأته كل يوم وردة.. و يعطر الوردة بعطر خاص.. يصنعه من أجلها في مصنع العطور الذي يمتلكه.. يعد من أجلها عطرا خاصا ينتقي مادته بنفسه.. و كأنه صانع ماهر.. لا أحد يعرف كيف احترف الصنعة.. و لا متى أتقنها.. يهوى أن يصنع العطر بنفسه.. في قارورة بلورية تشع ألوانا جذابة..

و لا يمكن أن ينسى حلواه.. حلوى من نوع فريد.. لا يمكن أن تجدها في الأسواق.. فإنها مصنوعة خصيصا من أجله.. في مصنعه الخاص.. مصنع كبير لأفخر أنواع الحلوى.. و لكن هذا النوع بالذات حرمه على الأسواق.. لا يتذوقه إلا هو و نساؤه الفريدات.. حلوى لها نكهات خاصة.. بنكهة الكرز.. و نكهة الفراولة.. و مختلف النكهات الأخرى.. إن لديه غابة بها مختلف أنواع الفواكه.. و أندر الزهور..

***

جاسر يحدثها عن آسيا.. و في قلبه ذاك الحنين.. الحنين الذي يراوده كلما تذكر آسيا.. و لم يعد يدري العلة من ورائه.. غير أن هناك شيء مجهول يتحرك بداخله.. يوجه طاقته كلها ناحية آسيا..

جاسر: أتسمحين لي أن أحدثك عن آسيا؟!..

إيمان: أو تشك في أني لا أرغب في الحديث عنها؟!..

جاسر: ربما أنها تحزنك بشكل أو بآخر..

إيمان: هل تحب آسيا فعلا؟!..

جاسر: أتشكين في حبي لها؟!..

إيمان: كنت لا أشك.. و لكن بعد أن سألتني بدأت أشك..

جاسر: و كيف هذا؟!..

إيمان: لأن الذي يحب آسيا لا يمكن أن يطرح مثل هذا السؤال..

جاسر: و هل في ذلك ذنب لا يغتفر؟!..

إيمان: بالنسبة لي نعم..

جاسر: سيدتي .. رجاء .. لا تخلطي الأمور.. كل ما قصدته أنه في قلبك جرح ما من آسيا..

إيمان: أو تعرف عن هذا الجرح؟!..

جاسر: أعرف جيدا..

إيمان: و لكنك لا تعرفني..

جاسر: بل أعرفك.. أعرفك أكثر مما تتخيلين.. و لهذا أنا هنا..

إيمان: و هل تعرف ماذا تعني آسيا لي؟! .. آسيا هى الذكريات الجميلة.. هى الماضي الذي يربطني بالأرض.. بدونها لن أكون.. إنها الحي الراقي الذي أسكن فيه.. و أعشق كل من يقطنه.. إنهم أقاربي.. إن ملامحي هى نفسها ملامحهم.. آسيا هى الصلة التي تربطني بمالك.. و لا ينبغي أن تنقطع.. حتى و إن اختلف مضمون هذه الرابطة.. يكفي أنهما موجودان في حياتي..

جاسر: و لهذا أنا أتيت.. لأني على يقين بأنك تحبين آسيا حتى أكثر من نفسك..

إيمان: و ما الذي جعلك على هذا اليقين؟!..

جاسر: إن من تحتمل كل هذه الآلام.. و تتحمل كل هذه المعاناة في حبها.. في سبيل أن تبقي على قيمها.. لابد و أن تكون امرأة غير عادية..

إيمان: هات ما لديك..

جاسر: سأعطيك الخطة كلها في مقابل شيء واحد..

إيمات: آسيا ليست لك..

جاسر: حتى لو أني أصبحت مواطنا مصريا..

إيمان: ماذا؟!..

جاسر: كل ما أطلبه منكم أن تمنحوني الجنسية المصرية..

إيمان: و بعدها..

جاسر: و بعدها سأظل في مصر.. سأتخذ منها وطنا.. و سأخلص لها بكل ما أملك..

إيمان: و لكنك رجل خطير.. فكيف لي أن أثق بك؟! .. قد يكون مخططا جديدا من مخططاتك.. أليس الأمر بيدك؟! .. ألست أنت الرجل الثاني؟!..

جاسر: بل قولي الرجل الأول..

إيمات: كيف؟!..

جاسر: هذه لعبتي.. لا تشغلي بالك..

إيمان: كيف لا يشغلني؟! .. لابد و أن أعرف كل شيء..

جاسر: ستعرفين عندما تطلعين على هذه الأوراق..

إيمان: لي سؤال واحد يحيرني معه..

جاسر: لا تحتاري يا عزيزتي..

إيمان: ما الذي غيرك على هذا النحو؟! .. أهو الحب يمكنه أن يفعل كل هذا؟!..

جاسر: ليس أي حب يا سيدتي.. إنه حب آسيا.. آسيا و لا امرأة إلا آسيا..

إيمان تسرح بعيدا.. تتساءل في نفسها:

– إذا كان جاسر قد تغير من أجل آسيا.. فلماذا لم يتغير مالك من أجلي؟!..

– أمعقول أني لم أحبك الحب الحقيقي؟! الحب الذي يجعلك تتغير من أجلي كما تغير جاسر من أجل آسيا.. أما أنه حقيقي ليس هناك امرأة إلا آسيا..

يااااه يا مالك كل أحوالك تحيرني معك.. لماذا أنت كالسراب؟! .. كلما ظننت أني ملكتك أجدك سرابا.. و رغم كل شيء لا أشعر بذاتي إلا عندما أكون معك.. تكفيني نظرة من عينيك الحائرتين.. أجد بهما معنى الوفاء.. تسعدني ابتسامة خجولة منك.. تذكرني بأن الدنيا مازالت بخير طالما أن فيها رجال شرفاء مثلك.. أعرف أن الحياة معك لها مذاق آخر.. و أي مذاق؟!..

***

بدأت آسيا ترتاح.. و تفيق من صدمتها.. راحت تنظر في شريط ذكرياتها.. و ترى ما لم تكن تراه.. أخذ الحنين إلى بلادها يناديها.. تحس أن عطر الأمكنة مازال يستحوذ على جوارحها.. تشتاق إليها كثيرا.. تشتاق إلى شجرة الصفصاف التي شهدت على عشق الصبية في حيها.. تشتاق إلى شارع الوفاء.. و شقاوة أطفاله.. و هم يلعبون فيه كل مساء.. و صوت ضحكاتهم يصل إليها.. و هى جالسة في حجرتها تقرأ في كتاب.. فيضحك قلبها.. و ترتسم الابتسامة على شفتيها.. و تترك كتابها.. لتنظر إليهم من وراء ستائر نافذتها.. و بدأت تشتاق و تشتاق..

تشتاق إلى بيتها.. تشتاق إلى غرفتها.. نافذتها.. تلك الأوراق التي كانت تكتبها.. و تركتها في درج مكتبها.. تحمل ذكرياتها.. و أحلامها.. و ما ضاقت به نفسها.. تشتاق إلى صورة والديها.. و تشتاق

أكثر إلى حضن جديها.. تشتاق إلى كل من أبعدته عن حياتها يوما.. تحتاج إلى أن تعتذر لهم.. و تخبرهم عن شعورها بالندم على يوم أقصتهم فيه من حياتها.. و عاشت وحيدة..

***

تتذكر السيدة علياء عندما دعتها إلى خطوبة ابنتها سها.. في قاعة الأفراح الموجودة في آخر الحي.. و التي شهدت على أكثر أفراح أهالي الحي.. هذه القاعة الفرعونية التي صممت على شكل فرعوني.. و اتخذت اسما فرعونيا أصيلا هو كليوباترا.. قاعة هادئة راقية.. و كأنها معبد مقدس لملكة من ملكات مصر.. أهدته لشعبها لتباركه..

لم تكن تلبي أي دعوة فرح تدعى إليها.. ما كانت تميل إلى مثل هذه الأنماط المتعارف عليها من الأفراح التقليدية.. و لكنها شعرت أن فرح سها سيكون مختلفا.. دلها على ذلك شخصية سها.. فسها فتاة مختلفة عن بقية الفتيات في أسلوب حياتها.. اكتسبت هذا الاختلاف من شخصية والدتها السيدة علياء.. فالاثنتان لديهما الشخصية نفسها.. الشخصية الأرستقراطية.. التي رغم بساطتها يمكنها أن تنأى بنفسها عن بساطة مستواها.. و تحرص على أن تكون حياتها كما تريد.. و ليس كما فرضتها عليها الظروف..

من أجل هذا قررت أن تذهب إلى الفرح.. و كانت قد سأمت الملل الذي يتخلل جدران حياتها.. أرادت و لو لقليل أن تخرج من عزلتها.. لترى الوجه الآخر للحياة.. لتنظر في هذا الاختلاط.. و هذه المشاركات الاجتماعية.. إلى أين ستأخذها.. و هل ستروق لها أم ستعود بها إلى حيث تنتمي؟! .. إلى انطوائها.. و انعزالها عن الآخرين..

وقفت أمام المرآة تتزين.. و تلبس حليها.. ارتدت فستانها الستاني الأحمر.. و وضعت حول رقبتها سلسلتها الذهبية التي يتدلى منها القلب الأخضر.. و بدت كإلاهة من آلهة الإغريق.. حتى أنها أعجبت بجمالها و فتنتها.. و وضعت على شعرها الأسود المرسل تاج مرصع ببعض الفصوص البيضاء.. لم تضع

أي من أدوات التجميل على بشرتها.. فقد كان يكفيها جمالها الطبيعي.. شفتان مرسومتان بيد فنان.. و وجنتان تتدفقان نضارة.. و ملامح فتانة لا تملك أمامها إلا الانصياع..

وقتها دخل عليها مالك.. و انبهر لها.. و ظل ينظر إليها في شيء من الذهول.. و كأنه أول مرة يراها.. جحدها بنظرة لم تفهم منها شيئا.. إلا معنى الغيرة.. فأي غيرة هذه التي تراها في عينيه؟! .. و شعرت بضيق نفسي.. و كادت أن تتخلى عن خروجتها.. لولا أنه عاد إليها ثانية.. و لكنه عاد مختلفا.. حتى نظرته اختلفت.. صارت نظرة إعجاب بها.. عبرت عنها عيناه بدقة لامتناهية.. شعرت معها آسيا بشعور غريب لا تدركه.. اختلطت بداخلها المشاعر.. و تساءلت في نفسها:

– ما هذه النظرة؟!..

لا يمكن أن تكون من عم لابنة أخيه.. و الله حيرتني معك يا مالك:

– أأنت عمي أم حبيبي؟!..

و فاجأها مالك بطلب غريب.. طلب منها أن يصطحبها إلى قاعة كليوباترا.. فاستغربت كثيرا.. فهو مثلها لا يلبي أي دعوة يدعى إليها.. يا ترى أهو خائف عليها أم أنه يشك فيها؟! .. أحست ضيقا لعرضه هذا.. و ارتسم شعورها على وجهها.. و لاحظ مالك ذلك.. و لكنه لم يتراجع.. إنه عنيد إلى أبعد الحدود.. و هى تعلم ذلك.. و لكنها ترغب بحريتها.. ترغب في أن تنطلق.. ترغب أن تذهب بمفردها دون رقيب عليها..

و اضطرت في نهاية الأمر أن تستسلم لأمره.. و خرجا سويا.. تعلق يدها اليسرى في ذراعه.. تخالجهما مشاعر جميلة.. و أحاسيس صافية.. و منذ خروجهما من باب البيت إلى أن وصلا قاعة كليوباترا.. و نظرات الإعجاب تحيطهما.. و هما يدركان ذلك و يفرحان به.. إنهما ينتشيان في قرارة نفسيهما بهذا التواصل الروحاني.. و يستسلمان له بكامل إرادتهما.. و إن كان مالك يشعر بكثير من الغيرة التي تظهر

عليه.. كلما لاحظ نظرة إعجاب تتوجه إلى آسيا.. للدرجة التي نسي فيها نفسه.. و وضع ذراعه حول كتفيها يحتويها إليه.. و كأنه خائف عليها من شيء ما.. و هى تستغرب لأمره.. و تنظر إليه لتسأله:

- لم يعاملها كحبيبة و هى مجرد ابنة أخيه؟!..

و لكنها تتراجع بمجرد أن ترى نظرات إعجاب الفتيات تطارد مالك.. و تشعر بزهو في أنه ميزها عنهن.. حتى و لو كان عمها و ليس حبيبها.. تتطلع إليه في إعجاب شديد.. ترغب أن تقول له:

- ليتك ما كنت عمي.. ليتك حبيبي..

فينظر إليها نظرة عميقة و يبتسم لها .. يستمتعان بالأجواء المختلفة التي تميزت بها الليلة..

إنه كان فرحا مختلفا في تفاصيله كما توقعت.. لم يكن يشبه الأفراح العادية.. و لكنه كان أشبه بسهرة ملوكية.. أعدت خصيصا من أجلهما.. فقد استحوذا على نظرات إعجاب الحضور.. و سرقا من العروسين تألقهما..

***

تزاحمت عليها الذكريات.. و تذكرت أشياء لم تكن تراها.. و لا تدري كيف تجاهلتها.. أشياء حقا جميلة غابت عنها.. لم تركز إلا على الأمور السلبية في حياتها.. أعطتها اهتماما غير عادي.. حجب عنها كل ما هو جميل و مر في حياتها.. ربما كانت تحتاج إلى هذه الهزة القوية لتنتبه لأشيائها الجميلة.. و لا تغيب عنها ثانية..

إنها حائرة بين مالك و جاسر.. فمالك يعني لها الوطن.. و جاسر يعني لها الحياة.. و لكنها ليست حائرة في أمر رجوعها إلى بلدها.. لقد أضحت الصورة جلية لها.. لابد و أن تعود مهما كان الثمن.. لا يمكن أن تظل هاربة دون مبرر مقبول.. عليها أن تواجه.. و تتحمل أي عقاب يمكن أن يحل عليها.. أكرم لها أن تواجه الموقف من أن تتجاهله أو تهرب منه.. و كأنها آثمة.. أو خائنة.. أو مطرودة من العدالة.. و لم كل هذا و لم تقصد غير الحب؟! .. لم تقرأ في أي تاريخ بأن الحب يمكنه أن ينتهي

بالخيانة.. فقد ارتبط الوفاء بالحب في كل قصص الحب القديمة.. و لتشهد على ذلك قصة إيزيس و أوزريس..

***

قررت آسيا أن تعود إلى حيث تنتمي.. و لكن يظل جاسر نقطة ضعفها التي تشدها إلى بعيد.. و كان عليها أن تقابله ربما للمرة الأخيرة.. فمن حقه عليها أن تجلس إليه.. و تخبره عما تشعر به من أحاسيس متضاربة في نفسها.. إنها تثق به.. و تعلم أنه لن يخذلها ثانية أو يغرر بها.. اتصلت عليه تحادثه بصوت هادئ مطمئن:

- جاسر أرغب في أن ألقاك..

- أخيرا..

- أرغب أن أخبرك بقراري..

- يمكنني أن ألمس اطمئنانا في نبرة صوتك..

- لقد اهتديت إلى أمر ما.. أرغب في أن أخبرك به..

- و هو كذلك.. لك ما تريدين..

- إذن متى ألقاك؟!..

- سأخذك في جولة في البلد.. و بعدها نجلس في مكان ما.. و عندها يمكنك أن تخبريني بكل ما لديك..

- لست مهيئة لمثل هذه الجولة..

- أحتاج إليها كثيرا.. فرجاء لا ترديني..

– أنا متعبة و منهكة..

– آسيا..

– نعم..

– هل وعدتك بشيء و خذلتك؟!..

– لا..

– أعدك ألا تندمين على هذه الجولة..

– و هو كذلك..

– موعدنا عند الساعة السابعة مساء..

– إلى اللقاء..

يغلقان السماعة و بقلبهما طوفان من الحيرة لا يدريان إلى أين سيأخذهما..

***

لقد حانت السابعة مساء.. ترتدي آسيا ملابسها.. و تحمل حالها خارج الفندق.. تجد جاسر في انتظارها.. ينظر إليها.. و يتأملها من بعيد.. و بمجرد أن تقترب منه.. ينزل من سيارته ليستقبلها.. ينظران لبعضهما بعمق.. يرفع يدها إلى شفتيه و يقبلها.. يفتح لها باب السيارة لتجلس بجانبه.. أخذتهما فترة من الصمت لا بأس بها.. و بعدها بدأ الحنين بينهما.. الحنين نفسه الذي يخصهما.. و ينتميان إليه.. إنه شعور يخصهما وحدهما.. و لا يمكن لأحد غيرهما أن يحسه أو يتقاسمه معهما.. أدار جاسر أغنيتهما على فين وخداني عينيك يا ساقيني الشوق بإيدك.. لتبتسم آسيا و دموع تملئ عينيها..

أوقف سيارته بالقرب من بقعة تشبه تلك البقعة التي كانا يلتقيان عندها.. نزلا من السيارة.. و أمسك بيدها.. و اتجها إلى هذه البقعة الساحرة.. انبهرت آسيا كثيرا بالمكان.. و قالت له:

– إنه يشبه كثيرا بقعتنا..

قال لها و الحنين يملأ صوته:

– تعالي أوريك شيئا..

كلما اقتربت آسيا من المكان.. وجدت شيئا يشبه ما كان موجودا على بقعتهما.. إلى أن وصلا إلى كوخ صغير.. يشبه كوخهما على بقعتهما.. الفارق الوحيد بينهما أن الكوخ القديم كان من صنع الطبيعة و كان بدائيا.. أما هذا الكوخ فهو من صنع جاسر.. نعم صبغه بصبغة الطبيعة.. و لكن بصماته تبدو آثارها جلية على المكان.. إذ وضع صورتهما على طاولة صغيرة.. و وضع بعض التحف القديمة التي تحبها آسيا مثل جهاز البيك آب.. و زجاجة عطر كان قد صنعها من أجل آسيا.. متفردة في زهورها.. كان يحلم أن يقدمها لها في يوم ما.. و شمعدان أنيق رومانسي.. و كلها أشياء أعدت خصيصا لأسيا.. تحمل اسمها.. محفور بحرفية عليها.. و كتاب عن شعر الحب و الغزل.. ملقى هناك في ركن من أركان المكان.. و بالطبع لم ينس عدة القهوة و علب سجائره.. كان هو المكان الذي ينفرد فيه كلما اشتاق إلى آسيا..

و أخبرها عن هذه الأشياء الملقاة هنا و هناك.. تشهد على عكوفه على المكان في أوقات كان يتمنى لقاءها.. و لم يملك من الأمر غير أن يتوهم وجودها معه في مكان أعده ليختلي بحبيبته عندما يضيق به الحال و يعجز عن وصالها.. فبنى هذا المكان الذي يشبه كثيرا مكانهما في مصر.. وضع فيه ذكرياته التي حملها معه منذ أن غادر البلاد.. و أضاف إليه حلمه بآسيا.. و ما يعده من أجلها.. على أن يأتي يوما.. و ترى كل هذه الأمنيات التي أعدها من أجلها.. فلا تظن يوما أنه نسيها.. أو يخيب رجاؤها فيه.. و تعتقد أنه هجرها من أجل أخرى.. إن علمت بدخول بعضهن إلى حياته..

كان لابد من أشياء مترخة.. تشهد على ما عاناه في حبها طوال هذه الفترة التي افترقا فيها.. فكان كلما تذكرها.. صنع لها شيئا من الأشياء التي يحبها.. و حفر عليها اسمها و تاريخ صنعها.. و عاش على أمل أن يلتقيا في هذا المكان.. ليريها ما أعده لها من أشياء.. يعرف أنها تحبها.. و أنه أحبها من أجل أنها تحبها.. كان يحدث الأشياء.. و كأنه يحدث آسيا.. كان يتخيل آسيا بجواره.. يقدم لها أشياؤه.. فتبتسم له.. و تمنحه يدها ليقبلها.. و يشهد في أذنها تلك الشهادة التي لطالما اعتنقها منذ أن وقع في حب آسيا:

– أشهد أن لا امرأة إلا أنت..

***

جلسا يستريحان سويا بعد أن تعرفت آسيا على المكان.. و أخذا يتجاذبان الحديث بهدوء تمكن منهما.. سألها جاسر بحنين:

– أتسامحينني؟!..

أجابته بالحنين نفسه:

– نعم..

و بعد صمت قالت له:

– و هل أملك غير ذلك؟!..

تحدث نفسها:

– بعد كل ما رأيته هنا..

أخبرها:

– نعم تملكين.. و لو شئت لا تغفري..

– و لكني أشعر برغبة في المغفرة..

– المغفرة وحدها لا تكفي..

– و ماذا تريد أكثر من ذلك؟!..

– أن تكوني لي.. و لا يشاركني فيك أحد.. فهل تقبلين؟!..

– تقصد مالك؟!..

– و غيره..

– لا أدري.. الأمر يحيرني.. و الاختيار صعب.. و لكني توصلت لأمر آخر..

– إني مصغ لك..

– تغيرت نظرتي لك.. و تغيرت نظرتي لمالك.. تغيرت نظرتي لأشياء كثيرة في حياتي.. حتى أنا تغيرت نظرتي لي.. فدعني أبدأ عهدا جديدا مع نفسي.. حتى يمكنني أن أبدأ عهدا جديدا معك أو مع غيرك..

– أخشى أن أفقدك..

– لن تفقدني.. أعدك بذلك.. سيظل لك مكانة في قلبي.. فأنا لا أنسى أبدا من وقف بجانبي.. و أنت وهبتني الكثير.. و هبتني أشياء أعرف أني لن أجدها عند غيرك.. و لكن هناك اعتبارات أخرى.. أحتاج أن أنظر إليها بشكل مختلف.. أشعر أني نضجت على عمري عمرا آخرا.. فهل تمهلني؟!..

يتنهد بصوت عال..

– آسيا تحتاج منك أن تتفهم موقفها.. أن تمنحها وقتا كافيا لتعود آسيا.. حتى لو اختلف فيها شيئا.. فستظل على رونقها.. سيظل فيها ذاك الشيء المختلف الذي تحسه معها دون سائر النساء..

– و هو كذلك.. سأنتظر.. تعلمت في حبك الصبر و المثابرة.. و لكني أريدك أن تفهمي شيئا مهما..

– ماهو؟!..

– أني بدونك إنسان بلا وطن.. فأنت لي الوطن..

– أفهم ذلك و أقدره..

– شيء أخير أحب أن أخبرك به.. لطالما رددته في نفسي..

– يكفيني هذا الحنين الذي يربطنا.. و يشدنا إلى بعضنا.. يكفيني هذا المكان الذي أعددته لنا.. ليشهد على وفائك لي..

– إنها كلمتي الأخيرة لك.. فرجاء اسمعيها..

– لا أحتاج أن تقولها.. لقد أخبرتني بها مرارا..

– و لكني أحتاج أن أقولها..

– إذن .. فلتقلها.. ربما أيضا أحتاج أن أسمعها..

– أشهد ألا امرأة إلا أنت...

***

ماذا عساي أن أفعل؟! .. بالله عليك يا مالك.. دائما ما تضعني في مواقف أشد على نفسي من أي مواقف أخرى يمكنني أن أمر بها.. و تصنع بي ما لأحد صانعه.. الآن.. الآن فقط لا تصبح عمي.. هكذا في غمضة عين أكون حبيبتك.. و أنا التي شغلت نفسي أيام وليال بالبحث عنها.. عن هذه التي تعتبرها فاكهة محرمة.. و لا يحق لأحد غيرك أن يشتهيها.. بعد أن كنت تنبذني أمسيت تشتهيني.. و

أين أضع كل هذا الجفاء الذي أحطتني به؟! .. كيف أمحو كل هذه القساوة التي ملأت قلبي عليك؟! .. قل لي:

– أين أضع جاسر؟! .. أنت تعرف أنك و جاسر لا يمكن أن توضعا على كفتي ميزان واحد..

ألهذا كنت أغير عليك؟! .. هل كان بداخلي شعور خاص بأنك لست عمي؟! .. بأني أنتمي إليك بشكل آخر.. كيف لي لم أفطن للأمر؟! .. كان في قلبي غيرة عليك.. لا أدري علتها.. فيها شيء يتعلق بالروح.. كنت دائما ما أراك في أحلامي الفارس المنتظر.. أبحث عن شخص يشبهك كثيرا.. أو قل في كل شيء.. كنت أقيس عليك الأشخاص الذين مروا في حياتي.. فأجدهم يتضاءلون.. و كم تمنيت بداخلي أن لو لم تكن عمي.. و لم أنتبه لحظة أن المستحيلات معك يمكنها أن تتحقق بمنتهى البساطة هكذا.. علمت أنهم يطلقون عليك رجل المستحيل.. و لقد آيقنت..

و أنت يا جاسر أين أضعك؟! .. بعد كل ما قدمته من أجلي .. أتخلى عنك؟! .. لقد وهبتني الحياة.. حياة أخرى غير التي كنت أحياها.. ربما عذبتني معك.. و إن كنت لا تقصد أو تتعمد إيذائي.. فهل من شيء يلزمني أن أتخلى عنك؟! .. هل من خيانة أقترفها و أنا معك؟!..

و لكني .. لا أخون.. و لا ينبغي لي.. فعندما أضعك يا جاسر و مصري في كفة.. لابد و أن ترجح كفة مصر.. إنها أمي.. و ليس لي أم سواها.. إنها قرة العين.. و مهجة الفؤاد.. ومهوى الروح.. و إن كنت أدين لك يا جاسر بكل هذه الأحاسيس التي تفجرت بداخلي.. و ما كنت ألمسها من قبل.. ما كنت أعرف أني أحبك يا بلدي كل هذا الحب إلا عندما فارقتك.. و ما أقساه من فراق! .. فراق يدمي القلب.. و إني لأشعر بنزف شديد.. لا أملك أن أوقفه.. أمعقول أن يكون حبك وصمة عار لي يا جاسر؟!..

لماذا في حبك اتهمت بأبشع تهمة يمكن لأي إنسان أن يتهم بها؟! .. لقد أصبحت خائنة و ما أنا بخائنة.. و ما كان بعهدي أن أخون.. و كيف يكون هواك خيانة و لقد تمرست على الوفاء من أجل حبك؟! .. لقد صمت عن كل أنواع الحب من أجل ألا أفقد مذاق حبك .. أليس هذا منتهى الوفاء؟!

.. إذن .. لماذا في حبك يخالجني شعور بالخيانة؟! .. و تسيطر علي عقدة الشعور بالذنب؟! .. ظننت أني في حبك سأتحرر من كل القيود.. و إذا بي أقع في بئر تفوح منه رائحة الخيانة.. و أستنشق السموم السوداء..

***

لقد اشتقت إلى بيتي.. إلى غرفتي.. إلى شرفتي.. لقد هجرت الأرض بحثا عن دنيا أخرى.. و نسيت أني بلا وطني لا شيئا يذكر.. نسيت أن الحي الذي عشت فيه هو من ربى في قيمي.. فكيف لي أن أهجره؟! .. و هل لي أن أحيا بلا قيم؟! .. إذن .. من يمكنه أن يمنحني الشعور بالانتماء ثانية بعد أن تبدل الحال؟! .. إني أرى في الوجوه من حولي أشباح أبعد ما تكون عني.. و لا يمكن لأرواحنا أن تتلاقى.. فأنا اعتدت الروح الشرقية.. و الليل العربي.. كم أشتاق إليك أيها النيل! .. إلى شربة منك تحييني.. إلى رائحة طميك تردني إلى رشدي.. كم أحتاج إلى أن أنظر إلى وجهي جدي و جدتي.. لأحس بالأمان و أشعر بالدفء.. لا أدري لم الآن أشعر بشيء يمسح على صدري بكثير من الطمأنينة؟! .. أشعر بأني أحتاج إلى أن أسامح و أغفر.. و أعود إلى حيث أنتمي.. أشعر بأني أرغب بشدة في أن أصافح أهل الحي.. و أعتذر عن تجاهلي لهم.. و أخبرهم أنهم يعنون لي الكثير.. و كان يكفيني أني أسكن بالقرب منهم.. لقد كانوا أماني.. و رفقتي الصالحة.. كانوا مثل كتاب موضوع على الطاولة منذ زمن.. يشعرني بأنه صديقي الوفي دون أن أفتحه.. مجرد شعوري أنه بالقرب كان يطمئني معه.. لقد قررت.. و لن أتراجع في قراري.. سأعود إليك يا بلدي مهما كان الثمن.. سأتحمل النتيجة كاملة.. و سأقبل أي عقاب يحل علي.. و يمكنه أن يطهرني.. حتى أعود بريئة كما كنت.. أعود تلك الصبية التي لا تكبر أبدا.. أعود تلك الفتاة المدللة البسيطة.. أعود تلك المرأة الساحرة.. أعود إلى حيث أنتمي.. فكل هذه المعاني بعيدا عنك سراب في سراب..

لابد و أن أخبر جاسر بقراري.. أعلم أنه سيصدم بعد أن تجدد الأمل لديه من آخر لقاء لنا.. خيل له أني ربما أتراجع.. و لكن ما بيدي حيلة.. ربما يقدر.. ربما يوجد لنا طريقة.. تعفينا مما نحن فيه.. ترحمنا من صفة الخيانة هذه التي لحقت بنا بدون وجه حق.. لابد لي و أن أخبره..

***

تخرج آسيا من جناحها متجهة إلى جناح جاسر.. تطرق على باب جناحه طرقات مضطربة.. يفتح لها جاسر.. و ينظر إليها في تخوف.. فقد علم أنها جاءته لتلقي له بقرارها النهائي.. و الذي لا رجعة بعده.. نظرت آسيا إليه نظرة ثاقبة.. و قالت له في ثقة:

- سأعود..

طلب منها أن تدخل إلى جناحه.. و قال لها بنبرة هادئة:

- و بعد أن تعودي..

- لا أدري.. و لكني أحتاج أن أعود.. لا أريد أن أخرج على هذا النحو.. و كأني مطرودة ملعونة..

- لن تكوني كذلك.. لقد شرحت لهم الموقف كاملا..

- أي موقف؟!..

- أخبرتهم أنه لا ذنب لك.. و أنك ضحيتي..

- و بعد..

- وضعت على طاولتهم المخطط بأكمله..

- و ماذا يعني ذلك؟!..

- أنك في مأمن.. و لن يصيبك أذى..

– أي أذى تتحدث عنه؟!..

– لا تقلقي.. أصبحت في يد أمينة..

– و الأذى النفسي .. من يمحوه؟!..

– أعاهدك أني سأمحو أي أذى قد لحق بك بسببي..

– لا أدري.. بداخلي وجع.. و آهة كبيرة.. و صرخة جاوزت المدى..

– سلامتك آسيا.. ألا يكفيك كل ما فعلته من أجلك؟! .. لقد خاطرت بمستقبلي المهني من أجلك..

– يكفيني من أجل ماذا؟!..

– من أجل أن تسامحيني..

تتحول إليه.. و تركز في عينيه.. و تقول له:

– أنت تعرف أني سامحتك من كل قلبي.. و لا يمكنني أن أنسى ما فعلته من أجلي.. و لكني ألوم عليك..

– ما الذي تلومينه علي؟!..

– أن تضعني في هذا الموقف.. أن تجعلني حائرة هكذا.. كان من الممكن أن تعفيني..

– أليست التجربة تستحق؟!..

– ربما تستحق.. ربما أنها أخرجت في أشياء ما كنت أدركها.. ربما أنها تستحق..

– بالنسبة لي تستحق لأنها أعادتك إلي ثانية..

– و لكنك في كل مرة تعود لتترك جرحا غائرا..

– أقسم لك بأني لم أقصد.. و أن كل شيء كان من ترتيب القدر..

– و هل يعقل رجل مثلك يترك ترتيب أموره للقدر دون أن يتدخل؟!..

– و هل كان يعقل أن أحبك كل هذا الحب و أتخلى عن قضيتي من أجلك؟! .. لم أؤمن يوما بالقدر.. و لكن بعد حبك القدري الذي طوقني آمنت.. و تغيرت.. و تخليت عن كل شيء..

– هذا الذي يحيرني.. كيف تتخلى عن مخططك من أجلي؟!..

– كل شيء يهون قصادك يا آسيا.. لقد غيرني حبك كثيرا.. أمازلت لا تدركين؟!..

– الموقف أكبر من قدراتي..

– صدقيني يا آسيا.. إني أضع بين يديك الحقيقة كاملة.. هناك أشياء ليس لها تفسير منطقي تحدث في حياتنا.. و أنا في حبك كفرت بالمنطق و المعقول.. و اكتفيت بحبك..

– أليس هناك خطر عليك بعد أن أجهضت مخططهم؟!..

– لا يعنيني..

– يعنيني أنا.. من حقي أن أخاف عليك مثلما خفت علي.. أريد أن أطمئن عليك..

– اعلمي .. لا يمكنني القضاء على الخطر بشكل نهائي.. و لكني أعدك طالما أني على قيد الحياة.. فلن يستطيع أحدهم أن يمس خصلة من شعرك بأذى.. أما أنا فاعتدت الحياة الخطرة.. و يمكنني أن ألاعبهم على طريقتهم..

– يااااه .. لم كل هذا؟!..

– الحقد البشري..

– و لماذا نحن بالذات؟!..

– الوطن يا آسيا .. قيمة كبرى .. و هم يعرفون كيف يقدرونها .. للأسف أنتم لا تقدرون وطنكم حق تقديره..

– من قال لك؟! .. من أخبرك بهذا؟!..

– كل الشواهد دلتني..

– ليس صحيحا..

– يكفينا غربتكم بداخل أنفسكم .. بداخل وطنكم .. لننفذ منها.. و ننفذ ما نريد..

– تدرسوننا جيدا..

– أهم ما يميز مخططنا هو الدراسة على المدى البعيد.. نحن لا نمل أبدا.. نتقن فن المثابرة..

– منتهى الحقد.. منتهى الكراهية.. لم نأت إلى الأرض لنحقد على غيرنا و نعادي بعضنا.. لقد آتينا لنعيش في سلام.. لماذا تستكثرون علينا أن نعيش بسلام؟!..

– قلت لك أنتم السبب..

– دعونا و شأننا.. قد نخطئ و لكننا نعود لنصالح بعضنا.. و كأنكم تترصدوننا..

– لقد كثرت اختلافاتكم.. انتبهي يا آسيا لما أقوله لك جيدا.. فأنا لا أتكلم من فراغ.. نصيحتي لكم أن تنتبهوا على بلادكم.. فلتطرحوا خلافكم جانبا.. و لتنتبهوا على أنفسكم.. على بلادكم.. صدقيني يا آسيا.. لو ضاعت بلادكم فلن تعود ثانية كما كانت.. ستفقدون فيها شيئا لا يمكن أن يعوض.. ستفقدون الملجأ و المأوى.. هل تريدون أن تعيشوا مطرودين في البلاد؟! .. أن تعيشوا في بلادكم فقراء أفضل بكثير من أن تعيشوا في غيرها أثرياء.. أتعرفين لماذا؟! .. لأن الوطن لا يشترى.. لو لديك مال الدنيا كلها.. يمكنك أن تشتري أي شيء تطمحين إليه إلا الوطن.. لا يمكنك أن تشتري وطنا...

– و ماذا لو...؟!..

– لو مت؟! .. هنالك مالك.. فهو يعرف كيف يحميك؟!..

– إني أخاف عليكما.. كأني وضعتكما في مأزق..

– ليس ذنبك.. فالعين عليك.. أنت مليكتنا.. و نحن حراسك..

– ماذا ستفعل بعد أن أعود؟!..

– سأنتظر..

– تنتظر .. ماذا؟!..

– أن يقبلوني لديهم..

– و ماذا لو لم يحدث؟!..

– سيعود الأمر لك..

– بمعنى؟!..

– إما أن تختاري أن نكون معا..

– و إما؟!..

– و إما أن نفترق للأبد..

تنظر آسيا إليه بعينين تملؤهما الدموع.. دموع حائرة.. لا تدري ما الذي تفعله؟! .. إنها على وشك أن تفارقه.. تفارق هذا الرجل الذي منحها المعنى الحقيقي للحياة.. و جاسر ينظر إليها بالحنين نفسه الذي اعتاده في وجودها و في غيابها..

همس لها بصوت مخنوق.. يخنقه الحنين إليها.. و الخوف من فقدها:

– سأظل عمري أشهد أن لا امرأة إلا أنت يا آسيا..

***

رجعت آسيا إلى جناحها بالفندق.. و قررت أن تحزم حقائبها.. وجدت على الطاولة التي بجانب المرآة صندوقا ذهبيا صغيرا.. أمسكت به و فتحته.. وجدت به بعض المجوهرات.. وجدت خاتما و عقدا و قرطا و إسورة.. و كلها تحمل الفص نفسه.. فص أبيض في إطار صغير على شكل مفتاح الحياة.. و وجدت بطاقة مكتوب عليها:

– هذه شبكتي التي انتقيتها من أجلك.. لقد صنعتها في مصنعي من أجلك أنت يا آسيا الروح.. لن تجدي امرأة من نساء العالمين تلبس مثلها.. فقد احتكرت تصميمها من أجل أن يكون لك وحدك.. تمنيت أن أقدمها لك هدية زواجنا.. و لا يمكنني أن أهبها لامرأة غيرك.. فتركتها لك في صندوقها الذهبي.. خذيها.. هى من أجلك حتى و لو لم تكوني لي.. و تذكري دائما أنه بيدك أنت وحدك مفتاح حياتي يا آسيا القلب..

أما إن قدر لنا أن نتزوج فهى شبكتي لك.. أتمنى أن تروقك كما راقتني.. فقد أخذت شهورا في تصميمها حتى ارتضيتها..

عاود آسيا الحنين نفسه الذي تحسه في وجود جاسر متسائلة:

– ما هذا الحنين الذي لا أحسه إلا في وجودك؟! .. أي صلة روحية هذه التي تشدنا إلى بعضنا؟!..

فكرت قبل أن ترحل أن تترك لجاسر شيئا يعبر عن مدى امتنانها لما فعله من أجلها.. و لكنها احتارت:

– أي شيء يمكنها أن تتركه له يوازي حجم ما قدمه لها؟!..

لا شيء يمكنه أن يوازي ما قدمه لها من أشياء و من مشاعر.. و لكن.. ربما الشيء البسيط منها يساوي عنده الكثير.. قد يساوي ما لا يمكنها أن تتخيله.. إنها آسيا.. إنها له حكاية عمر.. لم يكن له

عنوانا غير كلمة آسيا.. حكاية وطن وهبه هويته بعد أن عاش عمرا بلا وطن.. بلا هوية.. بلا انتماء.. و أي معنى لرجل بلا وطن؟! .. إننا نستدل على الرجال من أوطانهم.. فكيف بمن لا وطن له؟! .. هل لنا أن نستدل عليه؟! .. أن نحكم على رجولته.. فكان عليه أن ينتمي إلى وطن يستمد منه رجولته.. قبل آسيا كان شابا ضالا.. لا يؤمن بشيء في الحياة سوى لهوها.. و بعد آسيا أصبح رجلا ناضجا.. يؤمن بأنه لا حياة بلا وطن.. بلا آسيا.. حتى أمست آسيا له وطنا..

قررت أن تترك له كلمات على بطاقة.. تعرف أنه سيكون لها صدى المهتدين في صدره.. فربما بعض الكلمات يكون لها تأثير أقوى من أية أشياء أخرى.. فما أجمل الكلمات التي تأتي من إيمان بما نقوله و ما نعتقده! .. كتبت له:

إن القلب الذي تعتقد أنه لك وطن.. ينتظرك ليكون لك حقا وطنا.. و لكن ليس هنا.. في مكانه الحقيقي.. و على أرضه الأصلية.. أما غير هذا فما هو إلا سراب.. إنك لن تحس قلبي إلا في بلدي.. لأنها هى التي تمنحني هذا الشعورالذي تحبه في.. أتذكر ذاك الحنين الذي تربى لدينا؟! .. إن وجودنا هناك هو ما خلقه فينا.. و لن نحسه بالدفء نفسه إلا في جوها.. و إن عاودنا في أمكنة أخرى.. فما هو إلا نفحة ترسلها إلينا لتذكرنا.. حتى لا نغيب عنها.. ابحث بداخلك عن معنى هذا الحنين.. و عندما تضع يدك عليه.. سنلتقي ثانية في المكان نفسه.. لأني بالفعل قد اهتديت إليه.. و أحسه يتحرك في أحشائي.. كطفل مشاكس يريد أن يخرج للحياة..

***

تركت آسيا رسالتها لجاسر.. و رحلت عائدة إلى وطنها.. و عندما وقفت على باب الطائرة لتنزل إلى أرض الوطن.. كانت تشعر بحنين غريب يشبه الحنين الذي يشدها لجاسر.. أخذت تستنشق الهواء.. و كأنها تعاني ضيقا في التنفس ينفرج ببطء.. أرادت أن تملأ رئتاها بهواء الوطن.. و أن تشبع من نسماته التي داعبت خصلات شعرها.. شعرت و كأن يد جاسر تمسح على شعرها.. و فجأة نظرت إلى أسفل لتجد مالك.. ليمسح هذه المرة هو بأنامله على شعرها.. و يبتسمان لبعضهما.. ابتسامة ممزوجة بالأمل

و الرجاء.. اصطحبها مالك إلى مكتب أكمل المصري.. و عندما دخلت إليه.. و وجدته في انتظارها.. ينظر إليها بعمق.. تذكرته.. تذكرت ذاك الرجل الذي حدثها عن حب الوطن على الفيس بوك.. قالت في نفسها:

– إنه هو..

ثم سألته بتعجب:

– أنت؟!..

قام من مقعده ليستقبلها قائلا:

– نعم أنا يا آسيا..

– لماذا أنا هنا؟! .. هل تعتبرني مدانة؟!..

– بالطبع لا.. أنت هنا لشرح بعض الأمور..

أعرضت بوجهها عنه.. و قالت:

– ليس لدي ما أقوله.. فأنا منهكة.. و أحتاج إلى الراحة..

– سترتاحين بعد أن تسمعي ما سأقوله لك..

– لا أرغب في أن أسمع شيئا.. رجاء..

– ضروري يا آسيا ضروري.. من حقك علينا أن تتضح لك بعض الأمور..

– اتفضل .. أستمع إليك..

اصطحبها إلى طاولة صغيرة.. بجانب نافذة.. تطل على الشارع.. جلسا إليها.. و أعد لهما إبريقا من الشاي الأحمر الثقيل.. و بدأ يشرح لها الموقف:

– آسيا .. منذ فترة طويلة.. و نحن نتعرض لبعض الانتهاكات اللاآدمية.. من بعض القوى الخفية.. التي تعمل على هدم البلاد.. تصدينا لها في حالات لا بأس بها.. و تغلبت علينا في حالات أخرى.. هذه القوى لا تعرف هزيمة.. و لا يمكنها أن تستسلم..

أكمل يقطع حديثه .. يصب الشاي في فنجان آسيا:

– اتفضلي .. أتمنى أن يروقك ..

– أشكرك..

– عملنا بأقصى جهد لنا.. حتى نمنع خطر هذه القوى عن بلدنا.. و ظننا أننا ارتحنا من خطرها.. استرحنا قليلا.. لنحل بعض الخلافات الداخلية.. التي انتشرت بين الشعب في الأونة الأخيرة.. و بالطبع لم يضيعوا الفرصة.. فحاولوا أن يزرعوا جاسر في المنطقة.. جاسر كان وجها جديدا علينا.. فلم ننتبه له.. و لو استمر المخطط على النحو الذي وضعوه.. لكانت كارثة حلت بالبلاد.. و أي كارثة يا آسيا؟!..

آسيا تنظر له بشيء من الخوف.. تنظر بعيدا .. و هى تشرب من فنجان شايها الأحمر الثقيل.. ثم انتبهت لشيء.. و سألت أكمل فجأة:

– كيف عرفت أني أحب الشاي الأحمر الثقيل؟!..

– لقد كنت محور اهتمامي فترة من الوقت.. كان لابد لي أن أدرسك حتى في أدق تفاصيلك..

– معقول! .. إلى هذه الدرجة! ..

– و أكثر.. و أرجو ألا يكون ضايقك الأمر..

– لا أبدا .. لا عليك..

– على فكرة .. أنا مثلك أحب الشاي الأحمر الثقيل.. شاي الصعايدة..

– هل أنت صعيدي؟!..

– نعم .. صعيدي من الصميم..

– واضح..

– كيف؟!..

– ملامحك.. طريقتك.. أسلوبك في الكلام.. جديتك..

– لطالما قلت عليك أنك فتاة لماحة.. المهم..

وجودك يا آسيا كان فارقا كبيرا.. عاملا مهما في قلب اللعبة تماما.. و هو ما لم نتوقعه..

– كيف؟!..

– نحن لم نضع جاسر في طريقك.. أو حاولنا أن ندفع به أمامك.. الأمر حدث من قبيل الصدفة البحتة.. نحن لم نكن نعرف جاسر من الأساس.. و لا نؤمن بمثل هذه الأمور لنحل بها قضيتنا.. و لكن حب مالك لك.. و غيرته عليك.. هو ما كشف لنا شخصية جاسر.. لفت نظره ميلك له و مشاغلته لك.. استغرب كونه عربي.. من طبيعة مالك أنه يميل إلى الشك.. شك في أن الأمر ليس مجرد علاقة عادية.. أو إعجاب شاب عربي بفتاة مصرية.. لأنه سكن بالقرب منها.. بحث عنه على النت عن طريق صورته.. و وجدنا ما لا يصدقه عقل.. وجدنا أنفسنا أمام داهية كبرى رغم صغر سنه.. و عرفنا أنه في زمن قياسي.. تحول هذا الشاب إلى كائن لا يستهان به.. و فهمنا جزءا من اللعبة.. أدركنا أنه يريد أن يعيش بيننا لزرع بعض الفتن.. و لكي يبدو وجوده أمرا منطقيا.. كان لابد أن يمكن نفسه بالارتباط من امرأة.. و تكوين عائلة.. ثم يتحول إلى مستثمر .. يكبر و يكبر.. و يكون له تأثير قوي في اقتصاد البلد.. ثم يبدأ في الهدم تدريجيا..

– يااه! .. معقول كل هذا المكر و الكيد؟!..

– عملهم على المدى البعيد.. و هم لا يخسرون شيئا.. يحرصون على المكسب المادي في كل الأحوال.. إنها شبكة يا آسيا.. لا تنقطع أبدا..

– هل اختاربني جاسر لأني قريبة مالك؟!..

– هذا هو الأمر الذي حيرنا كثيرا.. هل الأمر كان مدروسا أم جاء من قبيل الصدفة؟!..

– لمحت من كلام جاسر أنها الصدفة..

– هذا ما أدركناه عبر الأيام.. و لكنهم يعرفون عنك يا آسيا.. أرادوا أن يتخلصوا منك.. ليستعيدوا جاسر..

– من هم؟! .. عمن تتحدث؟!..

– لا أتحدث عن شخص بعينه.. مجموعة من الأشخاص.. مجموعة من الأراء.. سلسلة متصلة ببعضها.. يجلسون على الطاولة.. يضعون مخططهم.. و يوزعون الأدوار..

– فهمت من جاسر أنه الأقوى فيهم.. هل هذا صحيح؟!..

– ربما الأقوى في منظومته؟!..

– بمعنى..

– هناك منظومات أخرى تعلوه.. تتشابك مع بعضها..

– هذا يعني أن الخطر مازال قائما..

– للأسف.. و سيظل مدى الحياة.. إنه صراع لا يمكن أن ينحل يا آسيا.. صراع قدري.. و البقاء للأقوى.. و لابد أن نكون أقوياء حتى يهابنا عدونا.. و هذا يقتضي منا أن نضحي.. نضحي من أجل بقائنا أحرار..

– نعم .. لابد و أن نضحي من أجل حريتنا.. لي سؤال من فضلك؟!..

– تفضلي.. اسألي كما تشاءين..

– صفحتي على الفيس.. أكانت صدفة أيضا؟!..

– لا يا آسيا.. لم تكن صدفة.. الحقيقة أني كنت أتابع جاسر على صفحته على الفيس بمجرد أن توصلت إليها.. يبدو أنه تركها مفتوحة لغرض ما.. فهمته أنا عندما قرأت منشوراته التي ينشدك فيها.. حتى أنه كان يصرح باسمك.. مما أوحى لي بأنه لو وجدك لعاد إلى رشده.. و خفف من لعبه معنا.. طلبت من إيمان أن تقنعك بعمل صفحة..

– كيف توصل جاسر لصفحتي؟!..

– هنا يمكننا أن نقول إن الصدفة قد تدخلت..

– معقول!!.

– أو ربما توصل إليك من صفحة إيمان..

– أكان يعرفها؟!..

– أعتقد ذلك .. فصفحة إيمان قديمة و تعرف إليها الكثير.. كنت أحاول أن أبقي على شيء يجمعكما ثانية..

– حتى بعد علاقتي الأولى به كان يضايقكم..

– كنا نظن ذلك.. و لكني اكتشفت أنه يماطل في الأمر.. و هذا لا يعني إلا أمرا واحدا..

– ألا و هو؟!..

– أنه كان يوهمهم و يخدعهم هم و ليس نحن.. و لكن كنا على شفا حفرة..

– كيف؟!..

– لو يأس جاسر من رجوعك يا آسيا.. لكان انتقم منا أشد انتقاما أن حرمناه منك.. الشيء الوحيد الذي جعله يتراجع هو أمله بك.. و هو كان يعلم عنك كل شيء.. و لكن لا يعرف كيف يصل إليك.. فكان الحل الوحيد هو الفيس بوك.. كان علينا أن نقربه منك ثانية..

– كيف كان يعلم عني كل شيء؟!..

– من المؤكد أنه كان يراقبك عن طريق بعض الأشخاص الذين أفلح في إدخالهم إلى البلد..

– ألا تحكمون السيطرة على البلد؟!..

– هناك أشياء قد تخرج عن إرادتنا يا آسيا.. فنحن بشر.. و لكنا نجتهد..

– معذرة لا أقصد.. و لا أشكك.. و لكن أحببت أن أفهم..

– من حقك أن تفهمي كل شيء..

– أشكرك على هذا..

– العفو .. هناك شيء مهم أحب أن أخبرك به..

– ما هو؟!..

– جاسر..

– ما به؟!..

– صراحة يا آسيا .. لقد فعل الكثير من أجلك.. قدم لنا ما يفوق تصوراتنا..

– أخبرني أنه وضع المخطط بأكمله على طاولتكم..

– من أجلك يا آسيا من أجلك..

– و هل هو مهم؟!..

– بالطبع .. مهم لنا للغاية.. لقد وفرعلينا الكثير.. و عافانا من الكثير .. و دون جهد كبير..

– لماذا فعل جاسر ذلك؟!..

– من أجل أن نصالحه.. و يستطيع أن يدخل البلد كشخص مرغوب به.. يمكنه أن يستثمر هنا.. و أن يستقر.. و كل هذا ليكون معك يا آسيا..

– هل ستسمحون له؟!..

– نعم .. لقد وعدناه.. طالما أنه أبدى حسن نيته.. فليس لدينا أي مشكلة..

– و مالك؟!..

– مالك لن يتقبله أبدا يا آسيا للأسف..

– و لم؟!..

– مالك شكاك للغاية .. و ستظلين أنت بينهما.. حتى لو تغاضى عن العفو عنه.. فلن ينسى أبدا أن جاسر غريمه..

– ما كل هذه الحيرة؟!..

– لا عليك.. كل شيء و له نهاية يا آسيا..

– أتمنى أن أنتهي من حيرتي..

– آسيا..

آسيا تنظر إليه باهتمام..

– أنا حقا عاجز عن الشكر..

– لا داعي أبدا للشكر.. ليس لي فضل في شيء.. الفضل لله وحده.. لولا معجزة الحب التي قذفها الله في قلب جاسر لهلكنا جميعا..

– الحمدلله..

– أتعتقد أننا نستحق؟!..

– مازلت الدنيا بخير يا آسيا..

– ينقصنا الكثير.. علينا أن نتعلم كيف نحب بعضنا.. و أن نعيش من أجل بعض..

– أتمنى يا آسيا و لكن تعرفين الحياة..

– لا أخشى الحياة بقدر ما أخشى تعصب البعض و أنانيتهم..

– و لا تنسي نظرتهم السطحية للأمور..

– الناس معذورة .. لقد عانت كثيرا.. و تحتاج أن ترتاح..

– كلنا عانينا يا آسيا.. ليس هناك نهاية لمعاناة البشر.. و إن اختلفت الطريقة..

– قلبي يشفق على هذا الشعب..

– إنه شعب عظيم.. و لديه إمكانيات هائلة.. و أهم ما يميزه أنه يعرف كيف يتغلب على المحن التي يمر بها.. و يخرج منها أكثر صلابة.. و هذا هو سر بقائه..

– صحيح.. إنه يستحق حياة كريمة.. و في يوم ما سيصل إلى ما يريده.. و يحقق كرامته..

– لدي سؤال لك..

– تفضل..

– ما الذي استفدته من تجربتك؟! .. و أنا أعرف أنك عانيت فيها نفسيا و عاطفيا.. و لست مؤهلة لذلك..

– تعلمت: ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط..

***

ابتسم لها أكمل ابتسامة المنتصر.. ابتسامة رجل عرف كيف يحافظ على امرأته من الضياع.. ابتسامة فيها كثير من الراحة بعد طول عناء.. و بادلته آسيا الابتسامة.. و لكن ابتسامة آسيا تختلف عن ابتسامته.. ابتسامتها نبعت من رضا ابتسامته.. ابتسمت لأنها رأت في عينيه رضاه عنها.. شعرت في رضاه عنها أنها تخلصت من تهمة الخيانة التي لحقت بها دون ذنب يذكر.. أزاح عنها ثقل التهمة و بشاعتها.. و لقد فهم أكمل معنى ابتسامتها فأهداها تحيته.. تحية ضابط شريف لعميله الذي نجح في تنفيذ مهمته بمهارة المحنك في مثل هذه الأمور.. و بعد أن ألقى عليها تحيته.. و لأول مرة من زمن تضحك آسيا من قلبها..

انتهى اللقاء بين أكمل و آسيا.. و اصطحب مالك آسيا إلى بيتها حيث تنتمي.. مخلفين ورائهما إيمان.. تبكي حسرة بقلب صامت صامد..

***

استقبل الجد و الجدة آسيا بلهفة و اشتياق.. و فرحة غامرة برجوع عزيز.. احتضنت آسيا جدها و جدتها بذراعيها.. و اغرورقت عيناها بدموع.. امتزج فيهما الحنين بالحب و بالأمان.. خليط لا تحسه إلا في وجود الأهل.. في وجود البيت.. في وجود العشرة الطيبة..

و بعد لحظات من رجوعها امتلئ البيت بالجيران.. جاءوا ليطمئنوا على آسيا.. فقد اكتشفوا أنها تعني لهم الكثير.. و أن غيابها عنهم كان فارقا جدا بالنسبة لهم.. شعروا بغيابها منذ أن أغلق باب شرفتها.. و شعروا برجوعها عندما وجدوا باب شرفتها مفتوحا..

عندما كانت تسكن الحي ما كانوا يشعرون بهذا الفارق.. فمجرد وجودها بينهم.. يجعلهم راضيين مطمئنيين دون أن يشعروا.. و لكن عندما غابت غاب معها شيء.. و افتقد المكان إلى وجودها.. و بدأ الكل يتساءل عن غيابها.. و بدأ الجميع يفتقدها.. و كأن الأيام التي غابتها سنون طوال.. و بدأ حنين من نوع ما يملئ قلوبهم لآسيا.. و بدأ اشتياق غير معهود يتحرك في قلوبهم نحوها.. و بدأ صوت في صدورهم ينادي عليها:

– آسيا.. آسيا.. آسيا..

جلست آسيا إلى جدها و جدتها لتفهم منهما.. تريد أن تعرف حقيقتها.. حقيقة يتمها.. إلى من تنتمي.. أهي يتيمة أم لقيطة؟! .. إن كانت يتيمة.. فمن هما والداها؟! .. و إن كانت لقيطة.. فأي ملجأ تبناها منه؟! .. احتارت كثيرا قبل أن تسألهما.. و شعرت بغصة في صدرها.. و قد عرف جدها و جدتها ما يدور بخلدها.. و وفرا عليها عناء الحيرة و التفكير.. فأخذاها من يديها في صمت.. و ذهبا بها إلى الشقة المجاورة لشقتهم.. كانت الشقة مغلقة منذ زمن بعيد.. و عندما فتحوا الباب و دخلوا فيها.. بدت آثار الأتربة جلية في كل ركن من أركانها.. الشقة التي عاشت فيها آسيا مرحلة من صباها.. و لكنها أرادت أن تتناسى هذه المرحلة من ذاكرتها لكي تتأقلم.. وجدت آسيا صورة زفاف والديها.. و بمجرد أن وقع نظرها عليها عادت بها إلى الأيام الهادئة التي كانت تعيشها.. و أدركت أهمية هذه الذكريات التي تعمدت تجاهلها طويلا في ربطها بالأرض التي نشأت عليها..

نظرت آسيا إلى جدها و سألته:

– بالله عليك يا جدي أخبرني عن كل شيء.. أريد أن أعرف الحقيقة..

تنظر إلى جدتها و تستحلفها:

– بالله عليك يا جدتي أخبريني بالحقيقة كلها.. و لا تخافي علي.. التجربة التي مررت بها جعلتني أقوى مما تتخيلين.. و يمكنني تقبل أي حقيقة مهما كانت مرة..

سألتهما بشيء من الخوف و هى تشير إلى صورة والديها:

– هل أنا ابنتهما؟!..

أجابها الجد بصوت مختنق.. و نظرت إليها الجدة نظرة حسرة على لوعتها هذه التي تحسها فيها:

– آسيا.. أنت لست ابنتنا..

امتلأت عينا آسيا دموعا.. و ابتسمت ابتسامة مريرة.. و لكن الجدة سارعت.. و قالت لها:

– لا .. لا .. يا آسيا .. أنت لست لقيطة يا حبيبتي..

نظرت آسيا إلى جدتها.. و بعينيها سؤال حائر.. و دون أن تنطق بكلمة.. أخبرتها الجدة بالقصة كاملة:

– آسيا ابنتي.. أنت بنت هذه المرأة الجميلة.. انظري إلى أمك.. دققي في ملامحها.. و ستعرفين كم هى تشبهك.. إن هذه المرأة امرأة أصيلة.. من أصل طيب.. تزوجت من رجل محترم.. و أنجبت منه طفلة جميلة اسمها آسيا.. و لكن الرجل مات.. و تركها و هى في عز شبابها.. تعلق بها ابني عماد كثيرا.. لتفردها بأشياء كثيرة.. فهى امرأة تدخل القلب بمجرد أن تقع عيناك عليها.. و لأننا كنا نعلم أن عماد لا ينجب.. فقلنا لعل هذه الطفلة الجميلة تعوضه و تعوضنا معه.. و أحبك عماد حبا جما.. و حملك بين يديه ينظر إليك.. و هو يكاد لا يصدق أن طفلة جميلة مثلك أصبحت ابنته.. و من شدة تعلقه بك غير اسمه على اسم والدك.. لتظني أنه حقا أباك.. و لا تشكي لحظة أو تتذوقي معنى اليتم.. حتى صدقنا جميعا أنك ابنته.. و نسينا الحقيقة المرة.. و اعتبرناك تعويض الله لنا.. فقد كان لوجودك المعنى الأمثل للحياة.. لقد منحتنا الحياة.. حتى ذوبنا فيك ذوبانا جميلا.. و كبرت بيننا.. و كنت قرة عين

أبيك و أمك.. كنت فتاة مرحة شقية مدللة.. حتى هذا اليوم المشئوم الذي وقع فيه الحادث الأليم.. و انقلبت العربة بوالديك و فقدتهما.. و من وقتها انقلبت أنت أيضا و فقدناك.. أردنا أن نخبرك بالأمر.. و لكنا خشينا عليك الصدمة.. و ما كان بيدنا حيلة.. فتركنا الحقيقة للزمان.. يخبرك بها كيف يشاء و متى يشاء.. و كنا بين الحين و الآخر نتألم من أجلك.. و لكن وجودك وسطنا أعطانا سكينة.. و منحنا اطمئنانا..

صمتت الجدة و قالت لآسيا:

– اجلسي هنا يا آسيا.. و تعرفي على المكان و ما يحويه.. ربما تجدين فيه ما يجعلك تغفرين و تسامحين..

أعطتها مفتاحا لدرج مغلق و قالت لها:

– إذا أردت أن تتعرفي على أبيك الحقيقي.. فخذي هذا المفتاح.. و افتحي هذا الدرج المغلق من زمن.. و ستجدين كل شيء..

***

خرج الجد و الجدة من الشقة.. و تركا آسيا لوحدها في المكان.. لعلها تهتدي إلى شيء يخفف من روعها.. و يجعلها تقدر الأمر.. أخذت آسيا تتمشى في الشقة.. لعلها تهدأ قليلا من هذه الأحاسيس المختلطة التي هاجمتها.. و نالت منها.. و اضطربت كثيرا كلما اقتربت من الدرج المغلق..

قررت أن تفتحه.. لتتعرف على ما فيه.. وجدت به صورا لرجل يبدو عليه الوقار.. يرتدي زيا عسكريا.. و عرفت أن والدها الحقيقي كان ظابطا في الجيش المصري.. و وجدت صورا له مع ثريا.. و صورا أخرى مع زملائه في العمل.. و كان من ضمنهم الأب الروحي لها عماد.. و ابتسمت في نفسها ابتسامة حنين.. ابتسامة تنم عن شوق دفين لهم.. و وضعت الأشياء في الدرج.. و لكنها لم تغلقه بالمفتاح..

***

جاء إليها مالك ليحادثها.. التفتت إليه.. و التقت عيناهما.. سألها بصوت مخنوق:

– هل سامحتني؟!..

ارتبكت آسيا في نفسها قليلا.. و حاولت أن تقول شيئا.. و لكنها صمتت.. قال لها مالك:

– أريدك أن تسمعيني بقلبك.. رجاء يا آسيا لكم تمنيت هذه اللحظة.. تمنيت أن ألقي إليك بحملي.. ربما تقدري..

مازالت آسيا صامتة لا تجد ما تقوله.. تحس في وجوده هدوء لم تعتاده من قبل.. ربما لتغير لهجته و أسلوبه معها.. إنه الآن يحدثها حديث الأحبة.. حديث يملؤه الأمل و الرجاء.. حديث حلو عذب.. يتودد فيه مالك لآسيا بعد طول جفاء..

– آسيا .. ربما أنك لا تعلمين حجم الحب الذي أحمله لك في قلبي..

– لا أعلم..

يتنهد.. و ينظر بعيدا.. ثم ينظر إلى آسيا بعمق.. يرغب بشدة أن يلقي إليها بحمله:

– أكثر ما يؤلمني هو عدم رؤيتك لكل هذا الحب الذي أكنه لك..

– أتلومني؟!..

– لا ألومك يا آسيا.. كانت مجرد أمنية.. و لكنها لم تتحقق..

– كيف أرى و أنت بعيد؟!..

– لم أكن بعيدا..

تنظر آسيا بعيدا..

– لم تكن بعيدا!! .. و أين كنت؟!..

– كنت أقرب إليك مما تتخيلين.. القرب ليس قرب الجسد فقط يا آسيا.. روحك كانت تحيطني .. كنت أتنفسك..

– لماذا خلق الله الجسد إذن؟!..

– منذ أن أصبحت صبية.. و أنا أخجل منك.. كبرت قبل الأوان يا آسيا.. في غمضة عين هكذا.. وجدتك فتاة كلها أنوثة.. انبهرت بك.. و لم أصدق ما تراه عيناي.. أهذه هى الطفلة التي كنت أداعبها؟! .. و بدأ قلبي يخفق لك بشدة.. الأمر الذي حيرني معه كيف أخبرك بأني لست عمك.. خفت عليك كثيرا في هذا العمر.. قلت أنتظر لعل الله يحدث شيئا..

– انتظرت طويلا..

– و لكني كنت أرعاك من بعيد.. و إيمان كانت هى عيناي.. لا تظلميها يا آسيا.. كانت مضطرة لذلك.. كنت أجبرها على أن تقص علي تفاصيل حياتك..

– و هل أكفاك أن تقص إيمان عليك أخباري؟!..

– لا بالطبع لم يكفني.. و لكني وجدت فيه سلوتي.. في وقت كنت لا أملك فيه غير ذلك.. في وقت كان يداهمنا فيه خطرعظيم.. و ثقي أني لا أبالغ..

– انسى يا مالك انسى..

– ربما لو كان حبي لك صادقا كما ينبغي لوصل إليك يا آسيا..

– أو ربما أخطأت الطريقة.. أحيانا نحتاج الجسد أيضا كما نحتاج الروح.. نحتاج إلى كلمة تغير فينا الكثير.. كنت أحتاج أن أراك كثيرا.. جسدا و روحا.. و أجلس إليك لأتعلم منك.. و أنضج على يديك..

– و قتها ظهر جاسر.. صدمت فيك صدمة كبيرة.. و لكني لم أستطع أن أكرهك أو ألومك.. لومت نفسي .. لومت الظروف التي وضعتنا في هذا المأزق.. بعد أن كانت حياتنا تسير بشكل طبيعي.. كان لابد أن أختفي من الصورة وقتا.. و بعدها قررت أن أستعيدك.. و ألا أتركك لجاسر.. التقيت بجاسر في شقته.. ذهبت إليه.. و كدت أن أقتله لولا تدخل أكمل.. قبض عليه و حقق معه.. و انتهى الأمر بترحيل جاسر من مصر..

– و بعدها .. كان يمكنك أن تخبرني..

– و هو ما كنت أنوي فعله.. لولا أكمل أجبرني ألا أخبرك..

– أكمل؟!..

– نعم .. وضع خطة أخرى على المدى البعيد.. بعد تحقيقه مع جاسر.. علم بحدسه أنه سيعود من أجلك.. كان يستشعر أنه سيغير كل شيء من أجلك.. و سننقذ مصر من خطر عظيم .. خيرني بينك و بين مصر.. ضعي نفسك مكاني.. من عليك أن تختاري؟! .. مصر هى أنا و أنت يا آسيا..

– الشيء الوحيد الذي جعلني أسامح و أغفر.. هو وجود مصر في الصورة.. مصر وحدها يا مالك..

– أعلم يا آسيا.. و ما عندي شك.. و لذلك أريدك أن تقدري موقفي.. و أني عانيت مثلك تماما.. أن أراك مع غيري أمر لا يحتمل..

– حبنا كان بريئا.. و أنت تشهد..

– لا أشك في أخلاقك قيد أنملة.. و لكنها طبيعة الرجل الشرقي التي جبلت عليها.. أن أغار على محبوبتي من رجل مثل جاسر أمر فوق الاحتمال..

– خذلتك يا مالك خذلتك..

– لا عليك يا آسيا .. لا عليك .. ليس ذنبك..

– ربما..

– إنها لعبة قدرية.. وضعها الله من أجل مصر.. الشيء الوحيد الذي علينا فعله الآن أن نطوي هذه الصفحة وراءنا.. و نلتفت لمستقبلنا حتى نعوض ما فاتنا.. و نستعيد عمرنا الضائع..

– و هو ما كنت أفكر فيه بالفعل.. يجب أن أستعيد نفسي يا مالك.. حتى أقدر على حياة جديدة..

– آسيا من فضلك.. ضعي يدك في يدي.. و عاهديني ألا تخرجيني ثانية من حياتك..

– أعاهدك يا مالك.. أعاهدك أن تكون في حياتي شيئا جميلا .. فأنت تستحق.. لقد تحملت الكثير من أجل بقائي بجانبك.. فكيف لا أبقيك بجانبي؟!..

يقبل مالك رأس آسيا.. و يتركها في الشقة وحيدة.. تروح و تجئ بين أركانها.. تنظر هنا و هناك.. رأت في أرجاء الشقة أشياء جميلة.. تدل على قصة حب عاشت في هذه الشقة.. و تذكرت بعض المشاهد التي غابت عنها.. و لم تتمكن من تذكرها إلا هنا في هذه الشقة.. و كأن للمكان علاقة بهذه المشاهد.. التي عاودت آسيا دون وعي منها.. تذكرت تلك الحياة البسيطة التي جمعتها مع والديها.. و كم كانا يدللانها.. و هذا الحب الذي كانا يحملانه لبعضهما.. و كانت تراه في عينيهما..

– يااااه ما أجملها من حياة! .. و لكني للأسف خسرتها.. و لا يمكنني أن أستعيدها إلا إذا...

و عندها توقفت آسيا أمام أمر مهم كانت قد غفلته.. و هو أن الأموات يشعرون بنا.. و يرسلون أرواحهم من بعيد لتراقبنا.. و ربما لتباركنا.. و يمكنها أن تستعيد روح والديها ليباركاها.. و ليراقباها في تصرفاتها.. و طالما أنهما يراقباها.. فلابد ألا تخيب أملهما فيها.. عليها أن تقدم لهما ما يجعلهما راضيين عنها تماما.. و لا يوجد شيء يمكنه أن يجعلهما راضيين عنها سوى أن تعود إلى نفسها.. و أن تتصالح مع الحياة من حولها.. و أن تعيد بناء ذاتها في كل حلم تحلم به.. في كل أمل تسعى لتحقيقه.. في كل رجاء لا يخيب..

أحست بفرحة تخالج نبضها.. و صوت يحدثها:

– بأن لا.. لم يضع الوقت.. و لن أيأس طالما مازلت على قيد الحياة.. طالما مازال بإمكاني أن أغفر و أتجاوز.. و أن أعود إلى كل هؤلاء الذين يحبونني.. إن لدي الكثير لأنظر فيه.. فلماذا أتوقف عند ما فقدته و ضاع مني؟!..

***

اندفعت آسيا ناحية الباب تفتحه لتخرج منه.. و تعلن على الملأ أنها تخلصت من كل هذا الحقد الذي كان يطوقها.. و لا تعرف له سببا.. لا تعرف لماذا كانت ناقمة على حياتها؟! .. و لا لم هى تهرب منها؟! .. لا تدري لماذا كرهت من يعيش حولها؟! .. و اتخذت منهم موقفا معاديا.. كانت تحس بأن شيء ينقصها.. بأنها تبحث عن غائب.. و لا تدري ما هو..

و لكن الآن بعد أن تصالحت مع نفسها.. لابد و أن تتصالح مع الجميع.. أدركت تماما أن للحياة أكثر من وجه عليها أن تتقبله.. فنحن لسنا على الجنة حتى ننشد حياة مثالية.. و ربما تحتاج الأرض منا أن نهبط قليلا عليها.. لنوجد فيها بعض الجنان.. و لكنها جنان من نوع مختلف.. لا تشبه ما عليها جنان السماء.. لأن الجنة في السماء من صنع الله.. و جنة الأرض من صنع الإنسان.. و ليس من الانصاف أن نقارن بين جنان السماء التي هى من صنع الله.. و جنان الأرض التي هى من صنع الإنسان.. و لكن علينا ألا نغفل أمرا مهما:

– إن الجنة التي يخلقها الإنسان على الأرض تستمد روحها من جنة السماء.. و إن تدنت عنها في شيء.. فسيكون ذلك في الحزن الذي ننثره في أركانها ثم نتغلب عليه بإيماننا..

آمنت آسيا أنها صاحبة رسالة كامرآة و كإنسانة و كمصرية.. آمنت بأن الحياة لا تقتصر على غرفتها و أوراقها و كلماتها.. و أن عليها أن توصل أفكارها و رؤاها إلى الآخرين.. لا أن تحبسها في مكتبها.. لابد أن يكون لها نبتة في الحياة.. ترعاها بنفسها.. إلى أن تثمر جميلا..

آمنت آسيا أن الحياة ليست قاصرة على تجربة فاشلة.. حتى تغلق على نفسها بعدها.. و تعيش أسيرة ذكرياتها.. الحياة أسمى و أعلى و أرقى من ذلك بكثير.. للحياة أكثر من باب.. كلما أغلق باب منها علينا أن نفتح الآخر.. أن نبحث في الوجوه عن من يدعمنا.. و يمنحنا شكلا مختلفا للحياة..

آمنت آسيا بأمور كثيرة كشفتها لها هذه التجربة التي خاضتها.. و أهم ما كشفت عنه هو عمرها الذي ضاع منها دون أن تدري.. كأن شيئا سلب منها إرادتها ليخضعها له.. وضعت يدها على فترة فارقة في عمرها.. و أيقنت أنه لابد من تعويض ما فاتها.. و لكن الذي يمضي لا يعود.. لا يمكن أن تعود سنوات العمر.. و لكن يبقى الأمل في الآتي..

***

ربما لا يمكنني أن أستعيد عمري.. لكن.. يمكنني أن أعوضه.. دائما هناك أمل علي أن أنصت له.. سأعد أوراقي من جديد بشكل مختلف.. بشكل يجعلني أجد نفسي.. سأكون موجودة في كل معنى جميل أقدمه لغيري.. في كل صورة حرة لامرأة تفانت من أجل إسعاد غيرها.. في كل ما أقدمه من خير لمن أعرف و لمن لا أعرف..

عمري كله و أنا حائرة بين أوهامي.. ضائعة بين ظنوني.. أبحث عن شيء مفقود.. ربما كنت أحتاج إلى حدث عظيم.. يهز كياني معه.. و يحدث لي فوقة.. و الآن أنا هنا.. أقف على أرضي.. و أعرف عن واقعي.. يتبقى لي أن أبدأ.. و أن أفتح الباب..

سأجمع أوراقي.. و أكتبها بإحساسي.. سأحكي فيها عن مراحل عمري.. و كيف عانيت فيها؟! .. سأقص كل شيء على القارئ.. ليكون شريكا لي.. سأخبره عن مالك و عن جاسر.. و عن هذا الحب الذي حيرني معه.. و عن ذاك الحنين الذي لا أستشعره إلا في وجود جاسر.. و عن هذه الصلة التي تشدني إلى مالك..ربما أجد عنده تفسيرا منطقيا أو مقنعا لما مررت به.. لكل هذه الحياة المغلقة التي عشتها.. ربما أجد عنده الباب التالي الذي علي أن أفتحه.. و أمضي فيه دون أن ألتفت إلى الخلف..

***

عبرت آسيا عن كل ما عاناته في حياتها الماضية على صفحتها على الفيس بوك.. و كانت تقرأ آراء القراء بشغف و سعادة غير عادية.. لمست في نفسها القدرة على تقبل النقد.. و ما كانت تقبله سابقا.. وجدت في عينيها دمعتين حائرتين كلما قرأت تعليقا يدعمها.. جعلت من صفحتها مدرسة لكل طالب علم من علوم الحياة.. بلغ أصدقاؤها الكثير.. و تابعها الكثير..

نضجت شخصيتها مع نمو صفحتها.. عرفت أشياء لم تكن تعرفها.. و اكتسبت مهارات لم تكن تجيدها.. و تأثرت بشخصيات لم تلق لها بالا من قبل.. و أثرت في فتيات بشكل أسعدها.. فقد علقت لها فتاة على إحدى منشوراتها قائلة:

– لا أدري كيف أشكرك على ما قدمته هنا على صفحتك.. استمري.. فأنا متابعة جيدة لك.. و منشوراتك فرقت معي كثيرا..

هذه الكلمات جعلت آسيا تفكر في شيء أثارها.. قررت أن تكتب قصتها في رواية.. و تنشرها في دار للنشر.. احتارت ماذا تسمي الرواية؟! .. آسيا على اسمها .. فكرت إلى أن اهتدت.. و استقرت على العنوان التالي لروايتها: أشهد ألا امرأة إلا أنت.. ثم ابتسمت في نفسها ابتسامة راضية..

***

لقد قررت السيدة فيروز أن تعد حفلا خاصا لآسيا يليق بها.. و عزمت كل أهالي الحي ليحتفلوا بآسيا.. و حجزت قاعة كليوباترا لتقيم فيها الحفل.. لم يكن الحفل على نفقتها الخاصة.. و لكن كل من كان يسكن الحي أسهم في إقامة الحفل.. حتى أن صاحب القاعة رفض أن يأخذ إيجارا لهذه الليلة.. و أصر على أنها هدية منه.. تعبيرا عن فرحته برجوع آسيا..

و هذه الفتاة الطيبة آية.. خبيرة التجميل في محل حورس للتجميل الذي تمتلكه في الحي.. هى التي قامت بتزيين آسيا.. لتبدو كعروس تزف إلى عريسها.. و ألبستها السيدة فيروز فستان سهرة من الستان

الأسود.. لتبدو في أزهى حلتها.. و وضع مالك بنفسه على رأسها تاجا يبرق بألماسه.. و لبست آسيا الشبكة التي أهداها إليها جاسر.. فكانت كالأميرة المتوجة على عرش الملكات..

كانت الحفلة رائعة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.. حفلة تتويج آسيا في قلوب محبيها.. و قد منحت آسيا بجمالها الفتان و أنوثتها الطاغية الحفل سحرا و جاذبية غير معقولة.. و أضفت على الحضور جمالا من نوع خاص.. فكلما نظرت في وجوههم شعرت براحة غريبة.. و ألفة عجيبة.. و كأنك تعرفهم من زمان..

جلست آسيا على الكرسي المخصص لها.. ترسل ابتساماتها إلى من حولها.. ممتنة لهم.. و كأنها تباركهم على صنعيهم معها.. وسط فرحات و ضحكات و موسيقا و أنغام.. و حلوى توزع هنا و هناك.. و ورود تتناثر في كل مكان..

يقف بجانب آسيا من ناحية اليمين أكمل.. و من ناحية اليسار مالك.. و تجلس بجوارها إيمان.. و كأنها وصيفتها التي تعمل على راحتها.. و تلبي لها رغباتها.. و كأن الكل يمتثل لأوامرها.. لأوامر مليكته التي توجها بإرادته على العرش بعد أن كاد يفقدها..

إنه حفل يشبه حفل تتويج ملكة على عرشها.. تتويج الشعب لملكته التي اختارها عن إرادة حرة.. و آمن بها إيمانا مطلقا.. يأتي عن يقين ينبع من وجدانه..

و ما كان ينقص الحفل غير جاسر.. و ها هو يطل عليها من باب القاعة.. و هى لا تكاد تصدق نفسها..عندما التقت عيناهما بمجرد دخوله.. حتى الحقد الذي كان بينه و بين مالك.. قد تراجع في أجواء الاحتفال بآسيا.. و ارتاحت نظراتهما لبعض.. و اطمأنت ملامحهما..

و بين أنغام الموسيقا يمشي جاسر باتجاه آسيا.. و يقترب منها أكثر حتى يصل إليها.. و يمد لها يده.. و هى جالسة على كرسيها.. ملكة في أجمل صورة لها.. فتمنحه يدها ليضع عليها قبلته.. و يهمس لها بابتسامة عريضة:

- أشهد ألا امرأة إلا أنت..

أبدأ منين

في العشق مين عن هواها يستغنى

و في القلب توصف كرمها كأنها الجنة

جامعة الحبايب و الجيران مفيهاش غريب عني

اسهر يا ليل .. غني يا عين .. قسم و سلطني

***

آمان و سلام ما نعرف خصام طريق المحبة دليل

في مصر تشوف تاريخ حكاوي الزمان و قعدة في قرب النيل

تنسيك هموم الدنيا تصفي القلوب و تبوح

صديقة و حبيبة و صادقة

و أجمل كيان و روح

شوف نفس الملامح و الوجوه

و العقل يحتار و يتوه

و العين ما تقدر تفرق أبدا

ما بين عربي و أخوه

أمان و سلام

***

إنها مصر .. و ستظل مصر

تمت بحمد الله

حـنان عـبد الرحمن